أوراق

AWRAK

أوراق
AWRAK
العدد رقم (١)
سلسلة تصدر عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية

رئيس مجلس الإدارة
إسماعيل سراج الدين

رئيس التحرير
خالد عزب

مدير التحرير
حسام تمام

سكرتير التحرير
أمنية الجميل

التدقيق اللغوي

الإخراج الفني
هبة الله حجازي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن وجهة نظر مكتبة الإسكندرية، إنما تعبِّر عن وجهة نظر مؤلفيها.

الثقافة العربية . . تساؤلات المستقبل

خالد عزب

٢٠١١

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة– أثناء النشر (فان)

عزب، خالد.

الثقافة العربية—— تساؤلات المستقبل؟ / خالد عزب. – الإسكندرية، مصر: مكتبة الإسكندرية، وحدة الدراسات المستقبلية، 2011.

ص. سم. (أوراق؛ 1)

تدمك 978-977-452-152-7

1. الثقافة العربية. أ. مكتبة الإسكندرية. وحدة الدراسات المستقبلية. ب. العنوان ج. السلسلة.

ديوي – 306.089927 9283120115

ISBN 978-977-452-152-7

رقم الإيداع بدار الكتب: 16577/2011

© 2010 مكتبة الإسكندرية. جميع الحقوق محفوظة

الاستغلال غير التجاري

تم إنتاج المعلومات الواردة في هذه الحولية للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية، ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية. وإنما نطلب الآتي فقط:

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها 'مصدر' تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية، وألا يشار إلى أنه تمَّ بدعمٍ منها.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذه الحولية، كله أو جزء منه، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية، وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذه الحولية، يرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص. ب. 138 الشاطبي، الإسكندرية، 21526، مصر. البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

التصميم والإخراج الفني: هبة الله حجازي

طبع بمطبعة

1000 نسخة

الثقافة العربية . . تساؤلات المستقبل

هناك جدل عميق على الساحة الدولية حول مستقبل الثقافة، ففي كل دولة يبدأ الحوار من دور المثقفين إلى هل هم فئة مهمة إلى دور الثقافة في بناء خصوصية المجتمع والدولة. لكن دعونا نحدد من هو المثقف، المثقف: هو من يعمل في أي مجال من مجالات إنتاج المعرفة أو نشرها، لقد كانت المشكلة إلى سنوات ليست ببعيدة هي الحصول على المعلومات، فأصبح من يختزن في ذاكرته كمية كبيرة من المعلومات ويستطيع أن يربطها ليقدم رؤية تقوم على المعلومات المتراصّة في صورة متتابعة، هو المثقف. لكن بعد انفجار المعلومات في عصر الإنترنت، بات إنتاج المعرفة والعاملون عليها هم الأهم، فالمقولة الشهيرة «المعرفة قوة» تدل على إنتاج المعرفة وليس فقط حيازة المعلومات هي الوسيلة الوحيدة لضمان البقاء والاستمرار، في عصر بات فيه الصراع السياسي والاقتصادي والعلمي والثقافي على أشده، لفرض الذات على الآخرين. من هنا نستطيع أن نفهم ظهور مصطلح "Digital Gap" الفجوة الرقمية، هذه الفجوة التي تتزايد يومًا بعد يوم في وقت يثير فيه منتجو المعرفة الرقمية مشكلات مستمرة، مثل إخضاع الشبكات

الرقمية لرقابة صارمة، وإثارة عقبات مثل حقوق الملكية الفكرية، وفرض أسعار مبالغ فيها على البرمجيات مما يحرم من لا يملك المال من امتلاك المعرفة العصرية.

هذا مؤشر إلى أن العاملين في مجالات إنتاج المعرفة يجب أن يحوزوا مستوى عاليًا من المعرفة، وتخزين المعلومات في بنوك لاستدعائها حسب الطلب. إن تحول الحكومات والمؤسسات إلى حكومات إلكترونية، يستدعي إنشاء مراكز هدفها تفسير التغيرات التي تحدث في المجتمعات نتيجة لهذه التحولات، وهنا تبرز طبقة المثقفين التي تحاول أن تفسر أو تستنتج التحولات الحادثة في المجتمعات بدءًا من اندماج كل الأجهزة والأدوات الخاصة بالاتصال في جهاز واحد "I pad" مثل (التليفزيون- الراديو – الصحيفة – الكتاب - خدمات الإنترنت) إلى توحد الأفراد مع هذا الجهاز، وقيام مجتمعات افتراضية بعيدة عن الواقع. إن تفسير تحولات التكنولوجيا وتحولات المجتمع هي فلسفة مذهب جديد ينقذ البشرية من الغرق في العالم الرقمي بل ويعتبر الحقيقة الوحيدة في الحياة.

لذا لن نتحدث هنا عن دور مؤسسات أو وزارات الثقافة في صناعة مستقبل الثقافة العربية؛ إذ إن هذه المؤسسات مازالت أبعد ما تكون عن هذه الصناعة، فالمثقفون دأبوا على أن يلتحقوا بمؤسسات ثقافية ليعملوا من خلالها فتعطيهم الشهرة، أو يرأسوا مجلات ثقافية أو دوريات علمية.

لذا لدينا هنا عدة محددات هي:

-قوة المعرفة

-صناعة المعرفة

-صناع المعرفة

فقوة المعرفة هي التي تحدد اليوم قوة أية دولة أو مجتمع، وصناعة المعرفة هي أداة الدولة لذلك الهدف، وهو حيازة المعرفة. وصناع المعرفة لم يعودوا هؤلاء المثقفين التقليديين بل إن صناع المعرفة اليوم ينقسمون إلى ما يلي:

- الأفراد المبدعين.
- المؤسسات الحكومية كوزارات الثقافة والهيئات الثقافية التي لعبت خلال الخمسين عامًا الماضية الدور الرئيسي في صناعة المعرفة وتحول صناعها إلى موظفين لديها.
- المجتمع المدني: سواء في شكل مؤسسات مثل مؤسسة الفكر العربي التي قامت على دعم مجموعة من الشخصيات العامة العربية، أو الأفراد مثل المجلة الثقافية الجزائرية التي أخرجت الثقافة الجزائرية من محيطها الوطني الضيق إلى الوطن العربي الكبير لأول مرة، عبر جهود تطوعية من مثقفين جزائريين، أو موقع دار الكتب الإلكتروني المصري الذي قام على أكتاف مجموعة من الشباب.

هنا أطرح قضية مثل **الدوريات التاريخية**:

تعتبر الدوريات التاريخية شريانًا رئيسيًا من شرايين المعلومات، وأداة للتعرف على الجديد في الدراسات التاريخية، وبات وضع الدوريات التاريخية العربية في حاجة لمراجعة شاملة، سواء من حيث المضمون أو الشكل أو التوزيع.

تعد مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية أقدم الدوريات التاريخية العربية التي ما زالت تصدر إلى اليوم، حافظت هذه المجلة لسنوات على مستواها الأكاديمي الرفيع، حتى عدت دوليًا من أفضل الدوريات التاريخية العربية، وانفردت بنشر دراسات تاريخية جديدة في مجالها، إلا أنه غاب عنها بصورة كبيرة فرعان هامّان هما تأريخ التاريخ وفلسفة التاريخ. ولعل حرص القائمين عليها الزائد على تقليديتها لم يجعلها تطرح ملفات جريئة، لكن يبقى لها أنها قدمت لنا مؤرخين من عدة دول عربية؛ لحرصها على التحكيم العلمي الدقيق للأبحاث أيًا كان اسم وشهرة وكاتب البحث، فالمضمون لديها هو الحكم في النشر.

يجيء بعد ذلك مجلتا اتحاد المؤرخين العرب الذي هو في حقيقة الأمر اتحادان، أحدهما في بغداد والآخر في القاهرة، ومجلة كلا الاتحادين تتسم أحيانًا بنشر موضوعات جادة وأحيانًا أخرى موضوعات مكررة لموضوعات أخرى، ويغيب عن كليهما إثارة النقاش حول القضايا التاريخية، غير أن مجلة اتحاد بغداد أخذت في فترة حكم الرئيس صدام حسين للعراق بعدًا قوميًا عربيًا، في حين تأثرت مجلة اتحاد القاهرة بمجلتي الدارة السعودية ومجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

وتتناثر في شتى أرجاء الوطن العربي مجلات تاريخية عديدة، لعل أنجحها مجلة تاريخ العرب والعالم التي تصدر في بيروت، والتي مثلت مجلة وسطية فلا هي أكاديمية بحتة، ولا هي مجلة تاريخية مبسطة، فجذبت قراء لها كثر ونجحت أعدادها في جذب الكثيرين لها، غير أن توزيعها محدود، مما أثر على انتشارها، وبالتالي صارت أعدادها القديمة تزداد قيمتها وندرتها، بل وارتفع سعرها لدى باعة الكتب القديمة. وتقف مجلة مصر المعاصرة التي تصدر عن دار الكتب المصرية كنموذج جيد للمجلات التاريخية المتخصصة، لكن كونها متخصصة في تاريخ مصر المعاصر يجعلها محدودة داخل نطاق المهتمين بتخصصها فقط، وإن كانت مجلة الدارة السعودية حققت انتشارًا بين المهتمين بالدراسات التاريخية لفترة طويلة، غير أن انكفاءها على شئون الخليج العربي وتاريخه جعل منها مجلة متخصصة.

لكننا في حقل الدراسات التاريخية لا نستطيع أن نتجاهل حوليات كلية الآداب بجامعة الكويت، التي يركز كل عدد منها على موضوع محدد، تميزت هذه الحوليات في دراساتها التاريخية بالجديد فقط، بل وبعمق موضوعاتها وقوة التحليل لقضاياها التي تطرحها، فتناولت فتح رودس وفتوح العرب للسند وموضوعات خاصة بتاريخ المماليك، والتاريخ الأموي والعباسي والأندلسي، بل والمزج بين التاريخ والحضارة... إلخ.

حدث خرق لطبيعة الدوريات التاريخية العربية، بصدور أول دورية تاريخية رقمية عربية محكمة هي دورية كان، صدر العدد الأول منها في سبتمبر

2008، كمجلة ربع سنوية، لها قراء كثر على شبكة الإنترنت من المغرب للخليج العربي، بل وفي أوروبا والأمريكتين، تميزت بتنوع موضوعاتها، فمن بينها البحوث والدراسات وعروض الكتب والأطروحات الجامعية وتقارير عن اللقاءات العلمية، وانتظمت في صدورها إلى اليوم، وما ساعد على انتشارها اعتمادها على أهمية التواصل مع جمهور عريض عبر البريد الإلكتروني وأصحاب المدونات، وأقامت لها مجموعة على موقع Facebook لنشر أخبار المتواصلين معها من المؤرخين العرب، بل قفزت قفزة نوعية بنشرها موضوعات باللغة الإنجليزية، وكتب فيها إلى الآن ما يزيد على المئة وعشرين باحثًا من جامعات الموصل وتكريت وتلمسان ومؤتة والزقازيق والبلقاء ووجدة والقاهرة وعين شمس، ومن العديد من المؤسسات العربية، ومما زاد في انتشارها توزيعها للعديد من الكتب الإلكترونية مجانًا مع أعدادها خاصة الكتب الجديدة.

تكاد تكون الجرأة في النشر هي السمة المميزة لهذه المجلة الرقمية، ويعود هذا إلى أن القائمين عليها من الشباب الذين خرجوا خارج إطار الدراسات التقليدية، على غرار مدرسة عبد الله العروي في المغرب وخالد فهمي في مصر، فالمزج بين التاريخ والأنثروبولوجيا أو البحث في فلسفة التاريخ أو القفز نحو البحث في مستقبل الدراسات التاريخية هي سمة ستميزها عن غيرها، فهل تشهد الدوريات التاريخية تغييرًا في السنوات القادمة، قياسًا على نجاح تجربة دورية كان الرقمية؟

نموذج من المجلة:

- تحت عنوان "**التفسير الفردي للتاريخ**" جاءت افتتاحية **العدد الحادي عشر** من دورية كان التاريخية؛ حيث حفل العدد بمجموعة من المقالات والدراسات لأساتذة وباحثين من العالم العربي:

- الدكتور محمد المذكوري المعطاوي (جامعة أوتونما – إسبانيا) في دراسة بعنوان "الليبرالية الجديدة والعولمة والثقافة: تحليل الخطاب التاريخي للأنا على الآخر".

- الدكتور علاء زهير عبد الجواد الرواشدة (جامعة البلقاء التطبيقية) في مقال بعنوان "نظرية العصبية: قراءة معاصرة في مقدمة ابن خلدون".

- الأستاذة بودالية تواتية (جامعة إسطنبولي – معسكر) في دراسة بعنوان "رؤية السلطة والمجتمع إلى الصناع والحرفيين في بلاد الأندلس: عصري الإمارة والخلافة».

- الأستاذ عمر بكر محمد قطب (جامعة المنيا) في مقال بعنوان "بياسة: أرض الزعفران الأندلسي".

- الدكتور الحسين عماري (الجمعية المغربية للبحث التاريخي) في دراسة بعنوان "حدود إسهام الدراسات الإفريقية في كتابة تاريخ المغرب الحديث: قراءة وملاحظات أولية".

- الأستاذ واعظ نويوة (جامعة الوادي) في مقال بعنوان "مدى رسوخ مهدوية ابن تومرت في مختلف طبقات المجتمع الموحدي".

- الأستاذ الدكتور محمد صالح الشنطي (جامعة جدارا) في دراسة بعنوان "توظيف التراث في تشكيل البيئة الروائية العربية لغة وسردًا: رواية (توبة وسليى) لمها الفيصل نموذجًا».

- الأستاذة آمنة بن منصور (جامعة تلمسان) في مقال بعنوان "دور القصيدة الأندلسية في الدفاع عن الدين".

- الأستاذ محمد بوشقيف (جامعة أبو بكر بلقايد) في دراسة بعنوان "المدرسة ونظام التعليم بالمغرب الأوسط خلال القرنين 8 هـ / 9 هـ - 14 م / 15م».

- الأستاذ أنور محمود زناتي (جامعة عين شمس) في مقال تحت عنوان "فهارس علماء المغرب والأندلس: دراسة تحليلية".

- الأستاذ نور الدين بن عبد الله (جامعة زيان عاشور - الجلفة) دراسة عن "العوامل المؤثرة في تشكيل عمارة القورارة: البيئية - الدينية".

- الدكتور بشار محمد خليف (سوريا) في مقال جديد تحت عنوان "مملكة ماري العمورية 1920 - 1760 ق.م".

- الأستاذة شلبي شهرزاد (جامعة محمد خيضر - بسكرة) في مقال بعنوان "الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية".
- الأستاذة خالدية مضوي (جامعة معسكر) تقرير عن: "الندوة العالمية لعلاقات الجزيرة العربية بالعالمين اليوناني والبيزنطي".
- الدكتور خالد عزب (مكتبة الإسكندرية) تقرير عن: "المجموعات المتحفية الخاصة في الوطن العربي".

ملف العدد بقلم الأستاذ الدكتور عماد أحمد الجواهري (جامعة القادسية) تحت عنوان "رؤى النهضة في الفكر العربي: مراجعة نقدية لإشكالياتها".

اختتمت العدد الباحثة أسماء صلاح (جامعة عين شمس) بمقال عن تاريخ الفن تحت عنوان "الحرّية تقود الشعب".

لقد حققت دورية كان التاريخية الرقمية على عمرها القصير نجاحًا يفوق الكثير من الدوريات الجامعية، بالرغم من محدودية إمكانياتها، وما ساعد على ذلك تلك الشبكة الممتدة من المغرب للكويت من المؤرخين الذين يكتبون مجانًا.

كما أن جهودًا فردية أنتجت مجلتين هامتين عربيًّا، غير أنهما مجلتان ورقيتان مما جعل توزيعهما وتأثيرهما محدودًا، وأنا أود أن أعرض تجربتهما:

مدارات غربية

بصدور مجلة «**مدارات غربية**» في بيروت شهدت المجلات العربية تحولاً هامًّا نحو فهم الغرب، فلسنوات طويلة ظل الاهتمام بالغرب مقصورًا على ترجمة بعض الكتب الصادرة، أو سرقة بعض إنتاجه ونسبته إلى مترجمه، غير أن هذه المجلة تقدم الفكر الغربي واتجاهاته من خلال إيجاد وسيط موضوعي وعلمي، يتيح للقراء والطلاب والمثقفين والقراء، في العالم العربي التعرف على تطور المجتمعات الغربية، وفهم تحولاتها الحضارية، لما لفهم هذه التحولات من تأثير على اتجاهات التطور في العالم.

وفي العالم العربي بصفة خاصة، تنحو المجلة أيضًا نحو الاهتمام بالقضايا الإقليمية والدولية، وذلك من خلال رصد الاتجاهات الرئيسية لحركة الأحداث، وتحليل التعقيدات الجيو-ستراتيجية التي تمس علاقات الغرب بالشرق. كما تتجه نحو تعريف القارئ العربي بمنجزات التقدم العلمي الغربي، وبخاصة الثورة المعلوماتية مركزة على استيعاب آليات التواصل في شتى المجالات المعرفية.

كما تقوم مدارات غربية بترجمة وتعريب ونشر كراسات دورية تعالج موضوعات وأبحاثًا ومقالات ذات طابع استراتيجي في إطار المصلحة المشتركة وبالاتفاق والتعاون مع مؤسسات ومراكز دراسات وأبحاث تعمل في أوروبا وأمريكا

الشمالية. مدارات غربية تجربة فريدة قام عليها أفراد واعون بأهمية رسالتها وليس مؤسسات رسمية.

ما سبق يعد تعريفًا بالمجلة وفلسفتها، وإذا كان هناك إدراك منا بأهميتها، فهذا يعود إلى جدية ثمانية أعداد قمت بمتابعتها صدرت من المجلة، غير أن أول نقطة تؤخذ على المجلة محدودية توزيعها، فهي على أهميتها فتوزيعها يكاد يكون محدودًا، ولولا البحث على الإنترنت بصورة عشوائية لما توصلت إلى موقعها وهو www.madarat.net، ثم طلبي من صديقي الدكتور (رضوان السيد) إحضار أعداد منها إليّ من بيروت، أما ثاني المآخذ فهو غلق المشاركات فيها على المترجمين والكتاب اللبنانيين، ولعل هذا ما سيفقد المجلة روح الاستفادة من الانتشار، وثالث مأخذ غياب أوروبا الشرقية والدول الاسكندنافية عن المجلة، وهي ليست الوحيدة التي تقع في هذا الخطأ بل كل المجلات الثقافية العربية تقع فيه، فنحن مازلنا مبهورين بثقافة ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وهولندا واليونان وإيطاليا، وحصرنا أنفسنا في إطار ضيق لم نستطع الخروج منه إلى اليوم.

غير أن الذي يحسب للمجلة كثير، منه تناولها لقضايا شائكة تفتح الأذهان على ما يدور في الغرب، مثل وجهات النظر والسياسات الأوروبية حيال الشرق الأوسط، فقدمت لنا المجلة تحليل (كريستين آرليك) وهي إخصائية أمريكية في الشئون الأوروبية، والشئون الخارجية والدفاع، هذا التحليل كان مقدمًا لدائرة الأبحاث في الكونجرس الأمريكي، يبرز هذا التحليل الرؤية الأمريكية للموقف

الأوروبي من الشرق الأوسط، خاصة نمو دور السياسة الأوروبية الخارجية تجاه العديد من القضايا التي صارت محل جدل وخلاف بين الطرفين، فأوروبا تسعى للعب دور يتناسب مع قدرتها كمانح مالي، فضلاً عن مصالحها الجيوسياسية التي ترتبط بقربها من مناطق التوتر في الشرق الأوسط، والتحليل يكشف رؤى لاشك أنها هامة لصناع القرار السياسي العربي.

كشف لنا أيضًا (جان بيار أسكافر) الباحث في جامعة رين الفرنسية، كيف تهيمن الولايات المتحدة على أوروبا بشكل قد يبدو مستغربًا بالنسبة لنا في الدول العربية؛ حيث يقر مشروع الدستور الأوروبي التقيد بقواعد منظمة التجارة العالمية وحلف الأطلس، وهو ما يعني ضمنًا الخضوع إلى قوة خارجية ينشأ عنه الاختزال الجذري لسيادة أوروبا على أراضيها، خاصة مع وجود القواعد العسكرية الأمريكية على الأراضي الأوروبية حتى بعد انتهاء الحرب الباردة، فضلاً عن شبكات التجسس الأمريكية الواسعة في أوروبا.

إن أعداد المجلة وملفاتها، ومنها الإسلام بعين الغرب، والأقليات في قلاعها المغلقة، وأمريكا الإمبراطورية المسحورة، وملحمة الديمقراطية، والعراق حرب الجغرافيا والتاريخ، واليهودية عقل الغرب وروحه، كلها بلا شك تعد مراجع هامة لإدراك ما يدور حولنا، إن مثل هذه المجلات على قلتها تأتي لتكون هي الزاد وسط غثاء من المجلات الهابطة أو المجلات الشللية الثقافة، أو التي أصابها الركود.

أمكنة

أمكنة فكرة جديدة ولدت بالإسكندرية عام 1999. ولأنها سكندرية النشأة لم تحظ كغيرها من المجلات الثقافية بأية عناية تذكر. فكثيرة هي المجلات الثقافية التي تصدر إما ممولة أو عن مؤسسات رسمية، لكن معظمها سيختفي دون أن يؤسس لرؤية جديدة. أمكنة تؤسس لرؤية متكاملة تقوم على تقديم صور للتحول من خلال المكان والزمان في الحياة الثقافية بأسلوب سلس رشيق، فهي تهتم بالكتابات التي تتناول المكان: ثقافته، وتاريخه، والناس الذين صنعوا هذا التاريخ، سواء بإرادتهم أو بحكم تواجدهم به، والخصوصية الفنية لهذا المكان، التي تكونت من ممارسات عادية لم يكن مقصودًا بها الفن من قبل، ولكنها أصبحت فنًّا الآن بحكم الظروف الجديدة التي تجعلنا نعيد ترتيب إحساسنا بالفن. المهم أن تتسم تلك الكتابات بتحليل أدبي لهذه النقاط التي تم ذكرها أو غيرها من النقاط اللانهائية التي يمكن أن تعرف المكان، ربما يتسم أسلوبها بقدر من المرونة يسمح لها بتغير شكلها. أي أن الأسلوبية التي يدعمها الوعي الشخصي هما المنفذ لخلق إبداع خاص في الأداء والتوجه في الأدب والفن دون الاعتماد على أشكال سابقة للتعبير. ربما هناك إحساس أو حدس يشير إلى أن دخول الحياة من باب الحكاية أو السرد هو في حد ذاته رغبة في عدم وضع نهاية مأساوية، فالحكاية مازالت مستمرة. ربما في تضاعيف الحكاية نفسها تكمن شروط لعمل جدل مع الحياة، شروط كانت مهملة من قبل في شكل السرد،

وفي حياة الأبطال أنفسهم. إنها حكاية على الحكاية القديمة. سيرة ذاتية للحياة بكل تفاصيلها ومكوناتها وموادها. من قبل كانت الحكاية من أجل البطل؛ ذاته، هواجسه. الآن تغير السياق الذي يمكن أن يعيش فيه البطل، فبجانب المجتمع والعلاقات الاجتماعية أصبحت هناك الطبيعة التي تم إغفالها كثيرًا، علاقة جديدة معها؛ ليرد هذا المكون الغائب الاعتبار لحيرة وجودية أصيلة تخص كل فرد على حدة، وتعطيه الحق في تفسير حياته.

بالتأكيد هناك بحث أنثربولوجي أصبح يتخلل الإبداع الآن، وهناك أسباب كثيرة له، منها الرغبة في فتح أفق جديدة للتجربة المأزومة لإنسان المدينة؛ لتستوعب تجارب وأنماطًا مختلفة؛ منها تعدد مصادر المعرفة ومنها الشك فيما أنجز ومنها أيضًا الدفاع عن خصوصية ما في الثقافة التي نعيشها. حركة مزدوجة للداخل والخارج. ربما الأنثربولوجيا كانت لها نشأة استعمارية. ولكن هذا العلم أصبح له وجه آخر تجاوز السبب الذي نشأ من أجله، وهو الرحلة وراء ثقافتك وثقافة الآخرين. الآن كل ما سينقص من ذاكرتنا، ربما لن يعود مرة أخرى، ونفقده إلى الأبد؛ السينما، المسرح، الفن التشكيلي، الكتابة، الرغبة في المعرفة، جميعها كونت المكان الآخر الذي نرى فيه أنفسنا وأحلامنا لماضينا. المهم الآن أن نحافظ على أن تكون لنا حكاية. وتطبيقًا لرؤية هذه المجلة للأمكنة نرصد معها تصورها لفندق سان ستفانو أشهر فنادق الإسكندرية وما حدث له في رائعة وصفية لهالة حليم تحمل أبعادًا فكرية وثقافية، ورصدًا لتحولات المجتمع المصري منذ عصر أسرة محمد علي إلى

عصرنا الحالي؛ حيث شيد الفندق عام 1886 وهدم عام 1998 . وسجل كل تحولات مصر السياسية، هذا الفندق أقيم لمشاهير السياسة والأدب والثقافة في مصر والعالم، مثل أم كلثوم وطه حسين ومصطفى باشا النحاس وأنور السادات والأديب الروائي البريطاني فورستر وغيرهم، وأدى التحول نحو القومية العربية إلى تأسيس فندق فلسطين بالإسكندرية لينافسه في العام 1964 كعلامة على التحول من رأسمالية زوار هذا الفندق إلى روح سياسية جديدة. ولارتباط فندق فلسطين بمؤتمر القمة العربية بالإسكندرية عام 1964، عقدت محادثات السلام في السبعينيات بين مصر وإسرائيل في فندق سان ستفانو. ولأن الخصخصة هي السيرة الاقتصادية في التسعينيات هدم الفندق ليحل محله بناية من طراز تَمَنَّت الكاتبة ألا يطلق عليها اسم سان ستفانو. ولا تترك المجلة الحكاية الشعبية بل نراها تركز عليها ضمن ما تركز عليه في مادتها الثقافية؛ حيث تركز الحكاية الشعبية – مركزة – على المفهوم الذي تتبناه الحكاية وتحاول تقديمه، وتثبيته داخل الجماعة الشعبية التي تتوجه إليهم، باعتبارهم الهدف الأساسي من عملية السرد عليهم؛ هذا المفهوم المرتبط أساسًا بالقيم والمتفق عليها من قبل الجماعة هو ما تقصده الحكاية مباشرة، دون لف أو دوران أو غموض. وعندما تقدم الحكاية مفهومًا معينًا مثل "الأمانة" – الأصل – العلاقات العائلية (الأخت والأخ) فإنها تقدم الجزاء إذا كان مكافأة أو عقابًا، ونستطيع أن نلمح ببساطة شديدة الطرفين المتناقضين داخل إطار الحكاية الشعبية.

كما أن مجلة مثل مجلة "عالم الفكر" هي الوسيط الأعلى من المجلات الثقافية العامة كالعربي والهلال التي تكتشف الأجيال الجديدة من المفكرين والعلماء في مجالات عديدة، فهي أول من طرح في أوائل السبعينيات على العلماء والمثقفين العرب الدور الذي ستطرقه الحاسبات الآلية في مستقبل العالم، كما عالجت موضوعات حساسة كالطاقة النووية والتصحر، حتى في مجال الدراسات الإنسانية قدمت للثقافة والعلم في الوطن العربي الكثير حين كان يتولاها الدكتور أحمد أبو زيد ومن بعده الدكتور أسامة أمين الخولي. حين توارى دور هذه المجلة نسبيًا الآن، فقدت الثقافة والفكر العربي رافدًا هامًّا من روافد العلم في المنطقة العربية.

المجلات الثقافية

مازالت مجلة العربي الكويتية تتربع على عرش المجلات الثقافية العربية، فهي منذ لحظة ولادتها ولدت عربية الطابع وقدمت خدمات جليلة للثقافة العربية، لكن الآن نحن أمام حالة جديدة هي ظهور مجلات ثقافية رقمية على نحو مجلة «الثقافة» الجزائرية، فلسنوات طويلة ظللنا نشكو عزلة المثقفين الجزائريين عن الوطن العربي، لكن العالم الرقمي أتاح لنا إطلالة جيدة على الثقافة الجزائرية، من خلال مجهود من المجتمع الثقافي المدني، ودون تكلفة عالية، فأنهت هذه المجلة احتكار وزارة الثقافة الجزائرية الإصدارات الثقافية، بل ونشاهد الآن ما يمكن أن نسميه "المثقف المستقل".

لكن للأسف هناك نوع من المجلات نفتقدها عربيًّا، فمجلة "عالم الفكر" الكويتية، ومجلة "المورد" العراقية، و"فصول"، و"المخطوطات العربية" وغيرها من المجلات التي تنحو نحو العمق فيما تنشره، والتي تظهر لنا مفكرين وفلاسفة ومبدعين، هذه المجلات تعثرت في السنوات الأخيرة، إما نتيجة لتواري جيل الرواد المؤسس على غرار "عالم الفكر" أو لضيق ذات اليد في التمويل والتوزيع على الرغم من جودتها مثل حالة مجلة "المخطوطات العربية" التي يصدرها معهد المخطوطات العربية، أو بسبب الحروب المتتالية مثل مجلة "المورد".

فإذا كانت هذه المجلات تتراجع فكيف لنا أن نتحدث عن طبقة جديدة من المفكرين والفلاسفة والعلماء والمثقفين رفيعي المستوى ممن يستطيعون إما تقديم رؤى جديدة أو نقد الأوضاع الراهنة أو استشراف المستقبل؛ حيث إن هذه المجلات:

- ساحة لاكتشاف هؤلاء.
- ساحة لطرح الرؤى الجديدة.
- تتلاقح فيها الرؤى والأفكار.
- تساهم في تيار الثقافة العالمية.
- تبني للمستقبل.

كلفة هذه المجلات يقع عبؤها على الدول والمؤسسات الحكومية أو المراكز البحثية، فتجربة «عالم الفكر» التي وفرت فيها الكويت إمكانيات لإقامة مجلة فكرية لصناعة المعرفة في الوطن العربي جديرة بالتكرار.

هل لدينا صناعة نشر؟

إن طرح قضايا النشر في الوطن العربي، يبدو مستغربًا من البعض ومستهجنًا من البعض؟ ومثار تعجب من آخرين؟ لكن الحقيقة المرة التي أريد أن أصدم بها القارئ أنه لا توجد صناعة نشر في الوطن العربي، بل يوجد لدينا طباعون للكتب، وهيئات ودور تعيش على ميراث قديم، أو بالدفع المستمر من دعم الدولة، أو تقتات على نشر الكتاب الجامعي، أو تستغل حفنة مما تبقى من أسماء عربية لامعة في عالم الكتابة، دون أن تخرج أجيالاً جديدة.

حقيقة الأمر أنه لا يوجد ناشر يحمل هذه الصفة بصدق سوى عدد قليل من دور النشر، وغير ذلك ناشرون ينشرون دون خطط مسبقة، ودون وعي بما ينشرون ولماذا ينشرون سوى المكسب المادي الذي إن قل تسارعوا للشكوى من ركود صناعتهم؛ لأن بضاعتهم لا إقبال عليها من الجمهور. هذه إحدى الدور التي تنشر ما يعرف بالكتاب الإسلامي، فإذا ركد تتحول فجأة ودون مقدمات لنشر كتب عن الزينة والجمال والتخسيس والمطبخ وإصلاح السيارات، بل ترى إحدى الهيئات المختصة بنشر الكتب تنشر مقالات لا تقرأ لصحفي أو صحفية

من باب المجاملة في هيئة كتاب؛ ليحصل على حفنة من الأموال؛ ليتحول بعدها بوق دعاية لهذه الهيئة. بل نرى طامة كبرى حين تُهْدَرُ أموال طائلة في موسوعات كل ما فيها من معلومات تقادم عليه الزمن، وليقع كل من اشتراها في مطب معلومات تغيرت وتواريخ لم تعد صحيحة، بل نرى إحدى دور النشر تستجدي دولة خليجية بطبع مطبوعات تروج لسياساتها. عجبًا إذن حين نرى ناشرًا يتعرض لمؤلف بإذلاله لكي ينشر له كتابًا، بل يدفعه لكي يشاركه في تكاليف طباعته. بعد كل هذا هل مازال لدى القارئ شك أن لدينا صناعة نشر؟

هذا السؤال بحاجة فعليًا إلى إجابة حقيقية تشخص الوضع الراهن في الوطن العربي وتقدم الحلول لتردي هذا الوضع واستمرارية ترديه بصورة مذهلة يومًا بعد يوم.

إن تحميل جهة بعينها المسئولية أمر فيه اختزال للمشكلة في طرف واحد دون بقية الأطراف، لكن هذه الأطراف لابد وأن نتعرف عليها، وهي كما يلي:

هيئات الكتب الرسمية، واتحاد الناشرين العرب، واتحاد الكتاب العرب، والصحف ووسائل الإعلام المختلفة، وكليات الفنون الجميلة والتطبيقية، ودور النشر العامة والخاصة، وغرف صناعة الطباعة والمطابع، ووزارات المالية، ووزارات الصناعة لمسئوليتها عن صناعة الورق.

وإحقاقًا للحق فإن هناك في وسط هذا الكابوس المظلم وهذه الحقيقة المفجعة، تجارب نشر تستحق أن نشيد بها لأن النقد لمجرد النقد لا جدوى منه، وإبراز بعض الضوء الشارد واجب، ففي الهيئة المصرية العامة للكتاب نجحت سلسلة تاريخ المصريين في سد فراغ كبير في التاريخ المصري، وقدمت مؤرخين شبابًا للساحة الثقافية المصرية والعربية، حتى أضحت مرجعًا لا غنى عنه لأي باحث، خاصة مع بيعها بسعر زهيد، وما جعلنا نستثنيها هنا هو وجود منهج علمي واضح في اختيار موضوعاتها بغض النظر عن ماهية المؤلف؟

هناك المشروع القومي للترجمة الذي ينفذه المجلس الأعلى للثقافة في مصر، والذي سيؤدي إلى تنوع اللغات المترجم منها إلى العربية. وقد دفع تنوع الموضوعات المترجمة، والحرص على الجدية في كل ما ينشر، دفع هذا المشروع لكي يحتل مكانة مرموقة على الساحة الثقافية العربية. وقد نجح المشروع في تخريج جيل جديد من المترجمين الشباب سيكون لهم أثر كبير في السنوات القادمة، والمدقق في المشروع يجد أنه يتطور عامًا بعد آخر، وها هو قد نشر خلال العامين المنصرمين كتبًا في العلوم التطبيقية وليس فقط في الإنسانيات.

تجربة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت سواء في سلسلته الرائعة عالم المعرفة التي تعد أفضل ما ينشر على مستوى الوطن العربي، أو سلسلة روائع الأدب العالمي التي بدأت بروائع المسرح العالمي، كما أن حرص

القائمين على برامج النشر في الكويت على الدقة واختيار الموضوعات بعناية فائقة، جعل سلاسل النشر الكويتية ذات مصداقية عالية.

تعد صناعة الكتاب عملية معقدة ومركبة في مجملها، تتطلب من أي دار نشر أن تعمل وفق آليات هذه الصناعة، بصورة منضبطة وسليمة، فهناك مرحلة تحدد فيها الدار مجالها كناشر هل هي ناشر متخصص أم ناشر عام أم ناشر يجمع الاثنين معًا. وهو ما تمثله كبريات دور النشر الدولية.

تلي هذه المرحلة تحديد دور مستشار النشر، وهو في الوطن العربي عملة نادرة، من المفترض فيه أن يكون مثقفًا وقارئًا ملمًّا بحركة النشر، لديه خبرة بكافة مراحل صناعة الكتاب، يستطيع أن يقيم العمل المقدم له بصورة سليمة، دوره هنا ليس دور المتلقي بل دور المقيم الذي يطلب إدخال تعديلات على المادة المقدمة له، وهو يوجه المؤلف لكي يجعل من كتابه مادة شيقة مقروءة، أو مادة علمية رزينة، ويوجه بعد ذلك مصمم الكتاب، ويحدد الجمهور المستهدف منه، والكمية المفترض طباعتها، ولكي نخضع المؤلف لرأي مستشار النشر وما يطلبه من تعديلات وإضافات أو اختصارات، فلابد أن نضمن حقوق المؤلف، وهي غالبًا حقوق مهدرة في مصر والوطن العربي، بل يتعدى دور مستشار النشر ذلك في دور النشر الكبرى إلى أن يطلب من مؤلف أو عدة مؤلفين الكتابة في موضوعات بعينها يرى أنها ستكون أكثر رواجًا، أو أن حركة النشر تفتقدها بشدة. وفي كثير من الأحيان يسعى إلى كتاب محددين لكي ينفذ من خلالهم خطة نشر يرى

أنها هي التي ستحقق للدار التي يعمل بها أرباحًا معقولة. مثل هذه النوعية من المستشارين، فضلاً عن خطط تسويق الكتب المدروسة هي التي تحقق في الولايات المتحدة وأوروبا واليابان مبيعات للكتب بالملايين؛ لأن الناشر هنا يعتبر عملية النشر صناعة متكاملة، بل نرى بعض الناشرين في الغرب يدفعون جزءًا من حقوق كتابهم مقدمًا لأنهم يرغبون في نشر مؤلف يعده هذا الكاتب.

هذا يقودنا إلى العلاقة بين الناشر والمؤلف في الوطن العربي، فدائمًا ما نتحدث عن حقوق النشر، لكن دائمًا ما ننسى حقوق المؤلف، ذلك الإنسان الذي يبذل من جهده ووقته لكي يبدع لنا مؤلفًا، لا ينال منه ما يوازي جهده من المال، بل يسعى بعض الناشرين إلى اعتبار مجرد النشر لمؤلف ما، أن النشر في حد ذاته مكسب له، بل يضطر بعض المؤلفين إلى الدفع للناشرين لكي ينشروا لهم. من هنا يجب إخراج قانون لحفظ حقوق المؤلف، كما أخرج قانون يحكم حقوق المطربين والملحنين، هذا القانون سيكون بداية لنهوض حقيقي بصناعة الكتاب، ويكون هناك علاقة عقدية محددة، يحمي فيها القانون حقوق الطرفين الناشر والمؤلف، يلتزم خلالها الناشر بالكشف عن حجم مبيعاته الحقيقية. إن احترام حق المؤلف سيجعل منه مبدعًا يحترم جمهوره المخاطب، وسيجعل لنا حقوقًا نحاسبه من خلالها على ما ينشره ويبدعه.

هنا نرى أن دور اتحاد الكتاب العرب غائب، فهو لا يؤدي دوره في حماية المؤلف، بل إن هناك حقيقة يجب إقرارها وهي أن نصف أعضاء الاتحاد ليسوا

بكتاب، انضموا إليه من خلال المحسوبية والواسطة لدى لجنة القيد، وهناك مفهوم خاطئ، وهو اعتبار عضوية الاتحاد مقتصرة على الأدباء وكتاب السيناريو، فهناك مبدعون في غير هذين المجالين، لديهم مؤلفات رائجة وقراء كثر، قد رفضت عضويتهم للاتحاد أو اعتبروا أعضاء منتسبين، وتوقفوا عن سداد اشتراكاتهم للاتحاد، فمتى يدافع الاتحاد عن الكتاب؟ وهل الاتحاد في ظل التغيرات المتلاحقة سيكون هو الحصن الذي يأخذ على عاتقه البحث عن حقوقه لدى الناشرين، وحقوق المؤلفين؟ هل سيسعى الاتحاد لضم الكتاب إليه؟ هل سيصحح دوره ومفهوم هذا الدور؟ هذا ما ستجيب عنه الأيام القادمة. فضلاً عن تحدي الكتاب الموجودين في العالم الرقمي من خلال مواقع عربية مخصصة لنشر الروايات أو القصص القصيرة أو المقالات، هل يعد هؤلاء كتابًا لهم حقوق لدى اتحاد الكتاب العربي، أو الاتحادات الوطنية.

ما سبق يقودنا أيضًا إلى تصنيف ما ينشر من كتب، وسنجده كما يلي:

مطبوعات بهدف تلبية رغبات قراء بعينهم، وهي كتب الخدمات كالمطبوعات التي تتناول الأمراض الطبية وعلاجها بطريقة بسيطة، وكتب الديكور والأزياء والموضة، وكتب الحاسب الآلي وبرامجه.

مطبوعات بهدف الاستخدام الجامعي، وتعيش عليها نسبة كبيرة من دور النشر المصرية والعربية.

مطبوعات للنشر العام الثقافي والعلمي والأدبي وهي تمثل النسبة الأقل بين كل ما سبق على عكس العالم كله.. ومنها المطبوعات السياسية كالمذكرات والكتب التي تحلل الأحداث السياسية.

بين كل ما سبق تقف السلاسل الشهرية أو الأسبوعية، وأبرزها في مصر اقرأ وتاريخ المصريين وكتاب الهلال وكتاب اليوم، وقديمًا المكتبة الثقافية.

هناك قضية سأطرحها هنا، هل الكتاب وسيلة تسلية وترفيه وتثقيف وتعليم؟ معظم الناشرين لم يدركوا أن هناك منافسة شرسة للكتاب؛ لذا لم يهتموا كثيرًا بإخراجه حتى ظنوا أن الإخراج الجيد يقتصر على الكتالوجات وكتب الفنون والأطفال، وأهملوا شكل الكتاب العادي في حد ذاته، فلم يصبح سلعة جذابة تلفت الانتباه.

إن هناك الكتاب الفاخر والكتاب الشعبي والطبعة الفاخرة والطبعة الشعبية. حقيقة الأمر إن معظم دور النشر لا تعرف مثل هذه التصنيفات؛ لأن دورها هو إخراج الكتاب، ولا يوجد لديها من يقوم بدراسة تسويق الكتاب والبحث عن رغبات القراء، فالكتاب المصور الذي يشاهد ويقرأ من قبل العائلة في المساء غير متوافر في سوق الكتاب العربي Coffee Book Table، فضلاً عن أن المؤسسات الاقتصادية لا تدعم صناعة الكتاب فالبنوك والشركات لا تعتبر الكتاب ضمن قوائم إهداءاتها للعملاء كما يحدث في الغرب، كما أنه

على الجانب الآخر فإن الصفحات المتخصصة في عروض الكتب وبرامج التلفاز المتخصصة في عروض الكتب في مجملها إما خبرية أو تميل إلى المجاملة، فضلاً عن أن روح النقد ظلت بعيدة عن عروض الكتب، هذه الروح تبين للقارئ لماذا هذا الكتاب متميز عن غيره، أو لماذا قرأه الصحفي للقارئ؟

إن طرح التساؤلات ومحاولة الإجابة عنها هي التي ستخلق اهتمامًا بأي كتاب، كما أن ظاهرة نشر كتب بأكملها في الصحف قبل نشرها تساعد كثيرًا على رواجها. وهي ظاهرة شبه مختفية حاليًّا من الصحافة العربية.

فضلاً عن أن المكتبات العامة لا توجد لديها سياسة اقتناء واضحة ومحددة وبرامج تزويد تساعد دور النشر على تحديد برامجها المستقبلية. وتبقى العلاقة بين الكتاب الورقي والكتاب الرقمي محل تساؤلات كثيرة تحتاج إلى مناقشة منفصلة.

هل انتهى عصر المكتبات؟

عُدّت المكتبات رمزًا دالاًّ على ارتقاء الشعوب ونهوضها، مخزنًا لمعارفها وكنوزها، ومكانًا لاحتضان المثقفين والمفكرين والأدباء والعلماء، وكأنها حضانة تفرخ وتنمي لنا أجيالاً جديدة منهم؛ لذا حرصت الشعوب على أن يكون لديها مكتبات قومية، وأخرى ذات اختصاصات في علوم بعينها، وغيرها لنشر الثقافة في المدن والقرى، لكن في عصر الإنترنت ومع ظهور المكتبات الرقمية، أصبح هناك

تساؤلات عديدة حول ماهية هذه المكتبات، كما أن السيل الغزير بها من المعلومات والمعارف هل يهدد الهوية الثقافية؟ وهل انتهى عصر المكتبات التقليدية؟

تعرف المكتبات الرقمية بأنها مجموعة من المعلومات الخاضعة لإدارة منهجية، تهدف إلى تقديم خدمة معرفية، من خلال اختزان المعلومات في صيغ رقمية، وإداراتها، ومن ثم إتاحتها عبر شبكة من الحاسبات. من المهم هنا التفريق بين السيل المتدفق من المعلومات إلى الحاسب الآلي لأي شخص في منزله، وبين إدارة المعلومات عبر شبكة الإنترنت، فالأولى تعني العشوائية والثانية تعني أن هناك من ينظم هذه المعلومات ويدققها ويمحصها قبل أن تصبح ذات مصداقية لدى من يتلقاها.

من هنا بات من الملحّ أن نؤكد أن هناك سباقًا بدأ في العالم اليوم نحو نوعية جديدة من أدوات تكوين المعرفة البشرية ليس عبر الورق، لكن عبر شبكة الإنترنت، ومن سيكون له وجود حقيقي مدار بشكل جيد، فسيكون له بالفعل مستقبل في الثقافة العالمية خلال السنوات القادمة، فهل هذا يعني أن مفهوم المكتبات بات حوله نقاش جديد؟

لاشك أن الإجابة بنعم ستكون منطقية، فهناك تحولات جذرية تحدث الآن، أدى بعضها إلى تشكيل اتحاد دولي للمكتبات الرقمية(DLF) في مقابل الاتحاد الدولي للمكتبات (التقليدية) IFLA، فالأول يضم المكتبات الجامعية في الولايات المتحدة والمكتبة البريطانية وجامعة أكسفورد ومكتبة الإسكندرية،

وهم يسعون جميعًا من خلال معايير صارمة نحو خلق مجتمع مكتبي افتراضي يشكل وعاءً للمعرفة الإنسانية على شبكة الإنترنت، أما الثاني فهو مجتمع المكتبات التقليدية الذي يرتكز على مفهوم المكتبات الوطنية التي تقوم بخزن وفهرسة وحفظ الإصدارات الوطنية وغيرها من أوعية المعرفة، الفرق بينهما شاسع يماثل الفرق بين الورق والحاسبات الآلية؛ فالأول انتشاره محدود مقارنة بالثاني، والثاني يوجد في كل بيت يتجدد في كل ثانية. الثاني سيل يتدفق ويتجدد، والأول - وهو الورق - وعاء وحيد غير مترابط؛ كل مجموعة أوراق تشكل كتاباته صورًا أو أشكالاً أو جداول أو إحصاءات، لكن في النوع الثاني هناك ترابط بين النص والصورة والشكل والجدول فضلاً عن الأفلام، وهنا يمكن تغيير المادة وتحسينها بصورة مستمرة، من الممكن أن يتفاعل معها القارئ وينقدها، الفرق هنا هو الفرق بين جمود المعرفة التي يحملها الورق وحيوية التفاعل مع المعرفة عبر شبكة الإنترنت.

عبر شبكة الإنترنت وإمكانياتها غير المحدودة، لم يعد القارئ في حاجة إلى شراء الكتاب الورقي لكي يصل إلى المعلومة ولا إلى تصفح الموسوعات للوصول لها، كما لم يعد المؤلف في حاجة للناشر التقليدي لكي ينشر كتابه، بل أصبح لديه إمكانية أكبر في نشر مؤلفه، فأصبحنا نقرأ عن أدباء وشعراء ينشرون أعمالهم عبر أوعية رقمية مختلفة، ما الذي يجعل إذن للمكتبات الرقمية دورًا إذا كان القارئ مستقلاًّ عنها والمؤلف ليس بحاجة لمثل هذه المكتبات؟ إن عملية تنظيم

المعلومات يقوم بها المختصون في المعلوماتية (Information Professionals)؛ وهم الذين يفرقون بين الغث والسمين والهزل والعبث واللهو والجد، فضلاً عن دورهم الذي نتخيله في الحفاظ على الهوية الثقافية على شبكة الإنترنت، هذا الدور في غاية الخطورة ويحتاج إلى مكتبات تكون هي الحاضنة لهم والفاعلة في بث هذه المعلومات سواءً في شكل كتب رقمية أو مواقع إلكترونية أو بوابات Gateway، أو غير ذلك من أشكال الأوعية الرقمية. من هذا المنطلق لا نستطيع أن نقول إنه مع التدفق المعلوماتي انتهى عصر المكتبات، بل إن هناك مفهومًا جديدًا للمكتبات سيكون بلا شك معتمدًا بصورة أساسية على البث الرقمي للمعلومات.

إذا كانت المكتبات الرقمية تختلف عن مثيلتها التقليدية في كثير من المعطيات، فإن العامل المشترك بينهما هو العنصر البشري الذي ينتج المعرفة لكي يستخدمها، وما بين المنتج والمستهلك للمعرفة وسيط يتمثل في المكتبات سواءً كانت تقليدية أو رقمية؛ هذا الوسيط يحتاج دائمًا إلى كشاف هو الإنسان الذي يقوم بعملية تكشف الأوعية أيًّا كان نوعها، وأنجح كشاف بحثي عالمي حاليًّا هو (Google).

لقد غيَّرت شبكة الإنترنت مفهوم الزمان والمكان، وأتاحت لنا فرصًا لم تكن منظورة منذ أعوام قليلة، فيمكن عن طريقها التعرف على كم هائل من المخزون المعرفي في شتى المجالات؛ حيث إن شبكة الإنترنت تحوي عشرات

المليارات من الصفحات، قابلة للبحث والكشف في ثانية واحدة أو أقل. وفائدة الإنترنت هذه مرهونة بآلة البحث (الكشاف الإلكتروني) المستخدم للتعرف على المادة المتاحة، واختيار الأنسب منها لعرضها على الباحث، فلا يعقل أن نتصور الباحث يحاول أن يجد ما يريد بين مليارات دون دليل. ومن ثم صار الكشاف المستخدم آلية أساسية في عصرنا، بل أصبحت هذه الآلية أكثر أهمية من أي عنصر آخر في عناصر الشبكة الاتصالية المعلوماتية، ولا شك أن أهم كشاف إلكتروني على الساحة حاليًّا هو (Google)، إلا أن جوجل لم يكتفِ بعرض كشافه لاستخدام مئات الملايين من المتجولين على شبكة الإنترنت، بل دخل في شراكة مع كبريات المكتبات الأكاديمية لرقمنة ملايين الكتب، حتى يتاح للباحث استعمال كشاف جوجل للبحث عما يريد فيها. أثارت هذه المبادرة جدلاً عالميًّا، وبصفة خاصة في الولايات المتحدة؛ حيث بدأ الصراع بين الناشرين من جهة وجوجل من جهة أخرى، فضلاً عن أوروبا التي باتت في قلق شديد من سيطرة محرك البحث Google على الفضاء الرقمي، هذا يعني سيطرة الثقافة الأمريكية والإنجليزية على الثقافة العالمية، فكأن العالم أصبح ذا ثقافة أحادية في الفضاء الرقمي مؤكدًا هيمنة ثقافة بعينها، فباتت الثقافات الأوروبية والآسيوية ومعها العربية وغيرها غير ذات محل في هذا الفضاء، لعل هذا ما دفع جان – نويل جانيني المدير السابق للمكتبة الوطنية الفرنسية إلى تأليف كتاب عنوانه «جوجل.. عندما تتحدى أوروبا» مثيرًا القضايا التالية:

أولاً: إن سيطرة كشاف جوجل (Google) سوف تؤدي إلى اختيار المادة المطروحة باللغة الإنجليزية دون غيرها. فإذا تعرف جوجل على آلاف الصفحات فإنه يقدمها في ترتيب أولويات تحكمه "فلسفة جماهيرية"، أي الصفحة التي قرأها أكبر عدد من القراء كسبق في الأولويات؛ مما يؤدي بمزيد من مستعملي الكشاف إلى قراءتها فيدعموا مكانتها في كشف تالٍ يقوم به باحث آخر.

ثانيًا: إن تركيز جوجل على الفقرة الواحدة في الصفحة الواحدة، فيه تحطيم للمضمون الثقافي للعمل، وليس الوسيلة المثلى لتعريف القارئ بكتاب أو مقالة.

ثالثًا: إننا نحن المهتمين بالثقافة يجب علينا أن نؤكد أن تقديم ثقافتنا بلغتنا لا يحجب عن القراء والباحثين في شتى أنحاء العالم؛ لأن كشاف جوجل(Google) سيعطي الأولوية للمنتج باللغة الإنجليزية.

رابعًا: إنه يتعين علينا أيضًا أن نقدم منتجنا الثقافي في إطار مختلف عن مجرد فقرات متناثرة من صفحات متباينة؛ ولأن أمهات الكتب في ثقافتنا لا يجوز أن تطمس لمصلحة ما هو رائج مهما كان سطحيًا.

إن خلاصة ما ينتهي إليه جانيني أن تقام مكتبة رقمية أوروبية، تقدم الثقافة باللغات الأوروبية المختلفة، وأن تستثمر أوروبا لإنتاج كشاف يضاهي كفاءة كشاف جوجل لخدمة القراء والباحثين الراغبين في التعرف على الثقافة الأوروبية.

لذا بات أيضًا من الملح أن نفكر جليًا في إنتاج كشاف عربي وبناء مكتبة رقمية عربية، إذ إن الفضاء الرقمي إذا لم يوجد فيه العرب بقوة فلن يكون لهم مستقبل ثقافي، وإذا كان هناك جدل أوروبي، فمن المهم أن نثير هذه القضية عربيًا، فهل هناك جهود عربية في هذا المضمار؟

إن موقعًا مثل الوراق والمكتبة الرقمية العربية التي أطلقتها مكتبة الإسكندرية يمثلان أولى المحاولات العربية الجدية لإقامة مكتبة رقمية على شبكة الإنترنت، لكن يجابه هذه المحاولات عدة إشكاليات منها:

- عدم توافر قواعد البيانات للمطبوعات العربية من القرن 19 إلى الآن بصورة متكاملة.

- عدم وضوح حقوق الملكية الفكرية سواء بالنسبة لدور النشر أو المؤلفين.

- تصاعد الاستخدام من قبل الفئة العمرية من 18 إلى 40 عامًا لشبكة الإنترنت، دون دمج هذا الاستخدام في العمليات البحثية بالجامعات أو ضمن البرامج الدراسية الجامعية.

تَبَنَّت مكتبة الإسكندرية عددًا من المشروعات بهدف أن يكون للعرب موطئ قدم في العالم الرقمي، فبمشاركة مع كل من (Carnegie Mellon Libraries) كارنيجي ميلون والهند والصين تقوم مكتبة الإسكندرية معهم بإعداد مكتبة المليون كتاب على شبكة الإنترنت؛ ليكون المشروع الأكبر عالميًّا في هذا المجال بعد مشروع جوجل. حصة الثقافة العربية به مائتا ألف كتاب ستتضاعف في حالة مضاعفة المشروع، لكن هناك عائقًا أمام نجاح مكتبة الإسكندرية، هو حجم ما طبع في الوطن العربي منذ انتشار الطباعة به في القرن التاسع عشر الميلادي، والمسموح من هذا الكم بثه دون عوائق قانونية على المكتبة الرقمية، إذ إن هذا الأمر يتطلب مساهمة ومشاركة كافة المؤسسات الثقافية العربية بمطبوعاتها.

لكن لكي يكون للعرب موطئ قدم في هذا الفضاء تم إطلاق ذاكرة مصر المعاصرة، وهو المشروع الذي نَفَّذْته مع فريق عمل من الشباب بمكتبة الإسكندرية، وعلى المدى البعيد سيكون لذاكرة مصر ثلاثة مستويات:

- مستوى للمستخدم العادي، الذي يبحث عن نص تاريخي مدقق مصحوب بمواد وثائقية تساعده على رؤية الحدث أو الشخصية بصورة أكثر عمقًا؛ مثل الفيلم الوثائقي أو اللقطات التلفزيونية التي ترينا مجريات الحدث، أو تعليقات الصحف عليه، أو الطوابع والعملات التي صدرت في هذه المناسبة.

- مستوى للباحثين المتخصصين؛ حيث يستطيع أن يستدعي مزيدًا من التفاصيل والخلفيات التاريخية والوثائق النادرة سواء كانت الرسمية أو الشخصية، فضلاً عن أن الذاكرة تتيح له إبداء رأيه وتصحيح المعلومات الواردة بها، إن كانت هناك أخطاء.

- مستوى للأطفال، من خلال رسوم الكرتون التي تشرح التاريخ بصورة مبهجة ومسلية للأطفال، وهذا المستوى هو المرحلة الأخيرة في تنفيذ المشروع، وإن كانت من وجهة نظري أصعبها.

- المؤكد أن مواد هذه الذاكرة لن تتوقف عند بثها على شبكة الإنترنت بل ستمتد إلى ما لا نهاية، فمن الممكن إضافة مواد لها بصورة مستمرة، بل وتطويرها.

من المتخيل لديّ أن الخط الزمني الذي يبدأ بعام 1805 وينتهي بعام 1981م هو محور تصفح هذه الذاكرة، فضلاً عن الموضوعات المتنوعة التي لا تقف عند البعد السياسي الذي اعتدناه، بل يمتد إلى أن يشمل الجمعيات الأهلية، والنوادي الرياضية، والشخصيات العامة، والمنشآت العامة، والمدن، والحياة الاجتماعية، والاقتصاد والمؤسسات الاقتصادية، حتى نصل إلى محاولات للتعمق أكثر فأكثر في صلب الحياة اليومية للمصريين عبر مائتي عام تقريبًا، لا ننسى المشروعات الكبرى مثل خزان أسوان، وحفر قناة السويس؛ أو الصغرى

كالصناعات الصغيرة التي ظهرت في مصر في عشرينيات القرن العشرين، إذن فعبر الخط الزمني سيستطيع زائر الذاكرة الوصول لما يريده من مداخل متعددة.

هذه الذاكرة التي تحفظ تاريخ مصر، هي نموذج يمكن تقديمه في كل الدول العربية؛ ليكون هذا خارجًا عن تيار العولمة الجارف، مؤكدًا شخصية كل دولة عربية على حدة. ليكون كل ما سبق ذكره هو مجرد جزء من المحاولات الجارية عربيًّا.

لقد جعل الورق تسجيل المعلومات سهلاً يسيرًا، وحوَّلت الطباعة القراءة إلى عادة يومية، وجعل الكمبيوتر العالم يعيش في ثورة من تدفق المعلومات، فهل انتهى عصر المكتبات؟ هل لم نعد في حاجة إلى تلك المباني الكبيرة لحفظ الكتب؟

هذان السؤالان لم يعودا علينا سوى بمزيد من التحديات، إن نشر الكتب لن يتوقف؛ ذلك أن اطلاع الإنسان على النوادر منها يماثل من حيث الكيفية رغبته في اقتناء اللوحات القديمة وزيارة المتاحف والآثار، بل إن نشر كل ما هو نادر وقديم كنشر أوائل طبعات روايات شكسبير على موقع المكتبة البريطانية جعل القراء في نهم نحو التعامل مع هذه الطبعات مباشرة، فإذا كانت المكتبات الرقمية ستوفر النوادر من الصور والكتب التي ليس لها حقوق فكرية، فإن المكتبات التقليدية ستحتفظ بوظائف حفظ الكتب المطبوعة التي سيزداد الإقبال عليها؛

لأن التجربة أثبتت أن ظهور أي وسيط لا ينفي ولا يوقف الوسيط القديم للمعرفة الذي يطوِّر من نفسه في قوالب ووظائف جديدة، كما أن المكتبات ستكون حاضنة للفكر وصانعة للثقافة، فبدلاً من أن تكون مؤسسة متلقية للمنتج الفكري والثقافي، ستكون أداة صناعة الفكر والثقافة؛ لذا نجد أن مكتبة الإسكندرية الجديدة وضعت ضمن خطتها الاستراتيجية أن يكون بها مراكز بحثية منتجة لهذا الفكر وحاضنة للأجيال الجديدة من المثقفين، ونجد هذا من خلال مراكز بحثية مثل:

مركز النقوش والخطوط والكتابات: الذي يدرس كافة أنواع النقوش والكتابات في العالم، ويعد أداة لدراسة الحضارات المختلفة وأصولها.

مركز المخطوطات: يهدف إلى جمع المخطوطات الأصلية وفهرستها وصيانتها بشكل علمي، والحصول على المصورات الميكروفيلمية والصور الرقمية من المجموعات الخطية في دول العالم، وتوفير مصادر البحث العلمي في المجالات التراثية المختلفة، والتبادل العلمي في المجالات التراثية المختلفة، بالإضافة إلى التبادل العلمي مع المراكز المناظرة في دول العالم، ونشر التراث العلمي، خاصة ما يتعلق بتاريخ العلوم وإسهامات الحضارة العربية والإسلامية في تراث الإنسانية، وتنظيم الدورات التدريبية المتخصصة في المجالات التراثية المختلفة مثل فهرسة المخطوطات وتحقيقها ونشرها، والتنسيق بين المراكز المتخصصة في التراث والمخطوطات وعقد الندوات العلمية في هذا المجال.

مركز البحوث والدراسات الخاصة: يهدف إلى تمويل شباب العلماء بمصر في مرحلة ما قبل الحصول على درجة الدكتوراه الذين يقومون بعمل الأبحاث المعنية بتخصصاتهم والذين يقومون ببحث إجمالي في مجال العلوم والتكنولوجيا. والارتقاء بالعلوم، والتعليم والتوعية الشعبية من خلال التوصل إلى برنامج اتصالات علمي فعال يتضمن مؤتمرات دولية عالية المستوى، واجتماعات، ومحاضرات، وورش عمل ومعارض تستهدف الإخصائيين وغير الإخصائيين، والعمل كمادة مساعدة لتقدم العلوم في مصر من خلال الحصول على المعلومات الخاصة بالموارد العلمية والتقنية القومية وتحليلها، والعمل كمحور لخلق ودعم شبكة دولية من التعاون مع استمرار المركز في كونه مركزًا علميًّا، وتحفيز الطلاب الموهوبين من بين المدارس والجامعات المصرية مع الاستفادة من مواهبهم، وزيادة مشاركة الفئات التي تمثل الأقلية (مثل النساء والباحثين في المحافظات الصغيرة) في المشاركة في الأبحاث العلمية والتقنية الحديثة.

كما أن من وظائف المراكز الآتية الموجودة بمكتبة الإسكندرية أن تكون ساحة للحوار والتبادل الثقافي، سواءً كان ذلك محليًّا أو إقليميًّا أو دوليًّا:

مركز دراسات الإسكندرية وحضارة البحر المتوسط؛ وهو أداة التواصل بين مكتبة الإسكندرية ودول حوض البحر المتوسط شعوبًا ومؤسسات رسمية وغير رسمية.

منتدى الحوار؛ وهو أداة الحوار الفكري والثقافي وملتقى يتم من خلاله مناقشة كافة الأفكار والآراء الجديدة.

وحدة الدراسات المستقبلية؛ هذه الوحدة أُنشئت بهدف ترسيخ هذه النوعية من الدراسات في الوطن العربي، وجعلت من أوائل اهتماماتها علم الاجتماع الديني، ومستقبل المجتمعات العربية، والمستقبل الاقتصادي العربي، والتحولات في القوى الدولية وغيرها.

إن دور المكتبة تجاوز ذلك باستضافة مؤسسة الحوار الأورومتوسطي (أناليند) التابعة للاتحاد الأوروبي.

إذن علاقة المكتبة هنا علاقة تفاعلية مع المجتمع المحلي والإقليمي والدولي، ولم تعد بناية لترفيف الكتب فقط، بل أداة تثقيف وحوار، فهل هذا هو دور المكتبات في المستقبل؟

لاشك أن الإجابة عن هذا التساؤل تتوقف حاليًّا على التغيرات المتلاحقة في وظيفة المكتبات، والتجارب المختلفة في هذا المجال وعلى رأسها تجربة مكتبة الإسكندرية.

الثقافة العلمية

دخلت البشرية منذ قريب عالمًا يهيمن عليه العلم، بعد أن كان النوع البشري على مدى الزمان الذي عاشه على ظهر هذا الكوكب إنما يعيش في عالم

تهيمن فيه على الفهم البشري قوى لا سبيل إلى التنبؤ بها، وعلى الرغم من أن هذا العالم لم يتوار عن الأبصار تمامًا، فإن العالم الطبيعي يبدو اليوم عالمًا يمكن التنبؤ بأحداثه ويمكن التحكم فيه أكثر من الماضي، ومن ثم أصبح أكثر أمانًا لنا مما كان لأسلافنا.

ما العلم: المنهج العلمي؟

إذا كان للعلم هذا التأثير الهائل في تاريخ البشر فإن من الطبيعي أن نسأل ما العلم على وجه الدقة، وفيم يختلف عن غيره من أوجه النشاط البشري؟

إن العلم شأنه شأن أي نشاط بشري، لا يمكن تقييمه وتصنيفه إلى أنماط منظمة، ولكن يتميز المنهج العلمي بخاصيتين في دراسة الكون، تفسران معًا لماذا العلم مختلف عن أوجه النشاط الأخرى. هاتان الخاصيتان هما الملاحظة والاختبار.

أولاً: الملاحظة

إذا شاء أي فرد معرفة شيء عن العالم فإنه يتطلع إليه ويشاهده كيف يعمل؛ إذ إننا نعيش ثقافة القرن الحادي والعشرين التكنولوجية، بحيث إنه من اليسير أن ننسى أنها وعلى مدى التاريخ البشري كان الجميع يعتبرونها على أقل تقدير عبارة خاطئة. وجاء على الإنسان حين من الدهر كان فيه الإصرار

على هذه القضية والمجاهرة بها يؤدي بصاحبه إلى التهلكة، وسادت دائمًا مناهج مناهضة لاكتشاف الطبيعة الحقيقية للعالم، إلى أن استطاع النجاح الباهر للعلم أن يزيح جانبًا هذه المناهج من الإطار الفكري صاحب الصدارة.

إن فكرة المعرفة العلمية تبدأ من الملاحظة حكمة عامة لها السيادة، لكن للأسف اقترن هذا الفهم ببعض المفاهيم الخاطئة. إن سوء الفهم الأكثر شيوعًا هو أن العلماء، إذ يلاحظون العالم، إنما يفعلون ذلك – وفق ما هو مفترض – بعمل مفتوح، وقد تحروا من كل المفاهيم عما هم بصدد اكتشافه. وغالبًا ما تتحول هذه الفكرة إلى ما يشبه حجة زائفة تتردد على لسان الفلاسفة الراغبين في إبراز مفهوم البنية الاجتماعية للعلوم. إن الملاحظة العلمية "محملة بالنظرية"، وإن ما يجعل العالم عالمًا جيدًا ليس أنه يبدأ عمله وبحثه صفرًا من أي توقعات محتملة، بل إن النتائج حين لا تتطابق مع التوقعات المنتظرة فإن العالم يسلم مقتنعًا بما تقوله الطبيعة، ومن ثم فإن العالم بدلاً من أن يتجاهل أو يلوي ويقمع النتائج، يغير هو فكرته عما يتصوره وينتظره من نتائج. ويفيدنا التطور التاريخي للعلوم بأن المشاهدات تعقبها دائمًا فترات من النشاط العقلي الفكري المكثف التي يتم خلالها الكشف عن انتظام المعطيات؛ لتكون أساسًا لاستحداث النظريات المميزة للنظرة العلمية عن العالم.

تفضي عملية الملاحظة في نهاية الأمر إلى شيء خاص جدًّا، وتفضي طبيعة المخ البشري إلى أننا حين نجد مظاهر انتظام في العالم الذي حولنا فإننا نعزو مظاهر

الانتظام هذه إلى سبب يمكن معرفته سواء قلنا إنها أفعال روح أو تجسيد عمل قانون طبيعي. ونخلق صورة عن الكون فيها سبب منتج لما نشهده من انتظام، وتعتبر هذه العملية ابتكار نظرية. فجميع النظريات ليست سواء عند ابتكارها؛ إذ إن بعضها يكون أفضل كثيرًا من غيرها من حيث تفسير ما نشاهده. فمثلاً "تايكو براهي" وضع نظرية مبنية على أساس مقاييسه. وتفيد هذه النظرية بأن الشمس تدور في مدار حول الأرض، لكن جميع الكواكب الأخرى تدور في مدار حول الشمس. وقد عجزت نظريته في النهاية عن تفسير البيانات تفسيرًا ناجحًا، ولهذا تخلى الباحثون عنها. ونذكر هنا أن هذه العملية التي تستهدف فرز الأفكار وإسقاط بعضها، بناء على مدى صلاحيتها لتفسير المشاهدات هي ما ينقلنا إلى الوجه الثاني الهام للعلم، ونعني به الاختبار.

ثانيًا: الاختبار

إن الجانب الأهم في العملية العلمية هو المقارنة التي لا تهدأ ولا تتوقف بين التنبؤات التي تقول بها نظرياتنا وبين ما يحدث بالفعل في الطبيعة. وهذا شأنه أن يكسب العلم صفة ليست لأي مجال من مجالات النشاط البشري، حكم مرجعي خارجي غير متحيز، بل صارم أشد الصرامة في عدم تحيزه. وإذا لم تؤكد التجربة أو المشاهدة تنبؤات النظرية فإن النظرية مصيرها الإغفال. وهذه نهايتها.

إن هذا الجانب من العلم هو الصعب من حيث قابلية غير العلماء لاستيعابه، لهذا تتمثل المشكلة هنا في ارتباطه بقضايا عدم الانحياز والموضوعية، وهاتان قضيتان تثاران في ثقافة ما بعد الحداثة.

إن الخلافات بشأن أية نظرية هي الأفضل لتفسير المعطيات التي بين أيدينا، وقد تستمر الخلافات عقودًا. لكن في النهاية يتفق الجميع على أن المعطيات المتاحة لنا هي التي تحسم القضية في النهاية. ويستطيع العلماء التوصل إلى نتيجة للحوارات الدائرة بينهم بأن يحصروا انتباههم في نطاق أنماط المسائل التي يمكن الإجابة عنها في ضوء المشاهدة. بيد أنهم في الوقت نفسه لابد أن يتخلوا عن البحث عن إجابة عن الأسئلة الأعمق، ويعبر عن ذلك كين بولدنغ حين قال: "العلم هو عملية إبدال الأسئلة غير المهمة التي يمكن الإجابة عنها بأسئلة مهمة لا يمكن الإجابة عنها".

ولننظر إلى الأمر على هذا النحو: تنبثق كل فكرة علمية في عقل فرد بعينه في مكان ما من العالم، وتخضع على مدى الزمان للاختبار مرات ومرات، وربما تصبح موضوع قبول. وأكثر من هذا أن في الإمكان أن تتضمنها المراجع. ولكن يأتي وقت حتمًا تأخذ فيه الفكرة مجراها في التطبيق، فتكون موضع اختبار وعلى المحك. وجدير بالذكر أن عملية القبول عملية معقدة، إذ تتضمن اختيارات فردية من جانب الآلاف من العاملين في المعامل في مختلف أنحاء العالم، وبين النشأة والقبول، وربما تدخل الفكرة العلمية فيما يشبه النسيان حتى لا يكون معروفًا إن كانت خطأ أو صوابًا.

ونحن حين نتحدث عن الكيفية التي سيواجه بها مواطن العلم في القرن الواحد والعشرين نجد أن حالة عدم اليقين هذه بالغة الأهمية؛ ذلك لأنها تتناقض مع إحدى الصور التي في خيال الكثيرين عن العلم. ونعرف أن الكثيرين يظنون أن العلم لديه إجابات دائمًا وأنها صحيحة دائمًا؛ لذلك فإن من الصعوبة بمكان على الكثيرين قبول ومن ثم فهم أن هناك فترات من عدم اليقين في تاريخ تطور أية فكرة.

صفة أخرى للمنهج العلمي، وهي أن المنهج العلمي قد يكون سبيلنا إلى الوصول إلى مقاربات أكثر ارتباطًا بالحقيقة ولكنه لا يستطيع أن ينتج – وغير مصمم بهدف إنتاج - «الحق»، وسبب ذلك بسيط للغاية: إذا كانت المنظومة مبنية على أساس الملاحظة، إذن فمن المنطقي أن تظل دائمًا معرضة لاحتمال أن تظهر غدًا ملاحظة أخرى تطيح بمبدأ استقر زمنًا طويلاً.

هل العلم جزء من الثقافة؟

إن الإجابة عن هذا السؤال رهن بما يعنيه المرء بكلمة ثقافة. فإذا فهمنا الثقافة، في أكمل صورها، بأنها الشبكة الاجتماعية والفيزيقية التي يعيش فيها جميع البشر فإن العلم دون أدنى شك سيكون بعضها، فإن القدرة على فهم العالم الطبيعي والتعامل معه تحديدًا القسمة المميزة لنوع البشر عن بقية الأنواع الأخرى.

ولكن كلمة ثقافة تستخدم في جميع الأحوال بمعنى أكثر محدودية، أي بمعنى ما يمكن أن نسميه "الثقافة الرفيعة". وهو جميع المعارف التي يحتاج إليها المرء في مجتمع ما؛ لتكون له حيثية، وليكون مقبولاً وسط جموع المثقفين.

ولا يمكن علينا أن نتحدث عن العلم والثقافة دون الإشارة إلى الرائد "تشارلز بيرسي سنو"، الذي قدم محاضرة "ريد" ذات المكانة والمهابة في جامعة كامبريدج في عام 1959، واتخذت عنوان «الثقافتان والثورة العلمية»، ونشرها بعد ذلك في كتاب يحمل العنوان ذاته. واعتمد فرضية أساسية هي أن الثقافتين، العلمية والأدبية، نشأتا وتطورتا بحيث تنفي إحداهما الأخرى، واستدل بالأنماط الأدبية لإدانتها بأنها تمادت عامدة في الجهل بواحدة من أهم قوى تشكيل المجتمع وعرض رؤيته على النحو التالي: «شاركت مرات كثيرة في تجمعات يوصف أصحابها – بمعايير الثقافة التقليدية – بأنهم أصحاب ثقافة رفيعة، وقد أعربوا بأسلوب يفيض حيوية عن تشككهم إزاء أمية العلماء. واستفزّني الحديث مرة أو مرتين، ومن ثم سألت المشاركين معي كم منهم بوسعه أن يعرفني ما هو القانون الثاني للديناميكا الحرارية؟ جاءتني إجابة محبطة ومثبطة للهمم، إذ كانت سلبية أيضًا. هذا على الرغم من أنني أسأل عن شيء هو المعامل علميًّا لسؤالك "هل قرأت أعمال شكسبير؟"

ومن نافلة القول إن هذه الرؤية فجرت جدلاً ضاربًا وسط رموز الأدب الإنجليز. وتضمنت شن هجوم شنيع بعيد عن كل اعتبارات العقل والمنطق.

ومن ثم فإن أفضل السبل لسد الهوة الفاصلة بين الثقافتين هو التيقن من أن جميع الطلاب، بمن فيهم طلاب الجامعات، درسوا الإطار الأساسي للمعارف الأولية العلمية. وهنا سوف يحتل العلم مكانه اللائق والصحيح تاليًا لبقية المباحث الفكرية باعتباره جزءًا أصيلاً من ثقافتنا.

الثقافة العلمية

حينما نتطرق إلى مفهوم الثقافة العلمية والمعارف الأولية فيمكن تعريفها على النحو التالي: "هي إطار المعارف اللازمة للمرء لكي يفهم ما يلزم عن الكون الطبيعي حولنا، وحتى تتسنى له معالجة القضايا التي تعرض لنا في أفق حياتنا، سواء في الصحف أو غيرها".

ينبني هذا التعرف على اعتبارات خاصة بأسلوب المواطن المتوسط عمليًّا في استخدام العلم. إنه مثلما هو بحاجة إلى معرفة ما يكفي من علم الاقتصاد لقراءة مقال عن تشريعات ضرائبية، وما يكفي أيضًا من قانون لقراءة ما تعرضه الصحف عن قضية معروضة أمام المحكمة العليا، كذلك هو في حاجة على سبيل المثال، إلى معرفة معنى الخلايا الجذعية الجنينية حتى يتسنى له تكوين رأي قائم على معلومات من مختلف القضايا الأخلاقية المحيطة به. وهذا ما تم الدفع به، وهو أن العلم يمثل جزءًا جوهريًّا من الثقافة التي نعيشها، وأن قدرًا أساسيًّا من فهم العلم يمكن أن يضيف مزيدًا إلى خبرتنا الجمالية بالعالم الذي حولنا.

تثار قضية تغير المعارف الأولية الثقافية بتغير الزمان والمكان عادة للدفع باستحالة التحديد الفعلي لمحتوى المعارف الأولية الثقافية، حتى وإن سلمنا بحقيقة وجودها. وها قد أصبح لدينا، بفضل هذا التاريخ، سجل طويل عن تطور المعارف الأولية الثقافية، ويبدو في الأساس أنه يتغير بمعدل يكاد لا يقل عن 1% سنويًّا، وهكذا فإن متابعة المعارف الأولية الثقافية ليست أصعب من ملاحظة التغيرات الحتمية التي يشهدها قاموس عادي.

إن المعارف الأولية الثقافية تتغير حقًّا مع الزمن، ومع المكان لكنها تتغير بطرق ووسائل يمكن التنبؤ بها والتحكم فيها.

وجدير بالذكر أن القسمة الجوهرية المشتركة بين جميع هذه الحجج هي أن نمط المعارف اللازمة للمواطنين المتوسطين مختلف حولنا تمامًا عن المعارف اللازمة للحياة العلمية للعلماء أو المهندسين؛ إذ إنه لا يتضمن القدرة على ممارسة العلم أو القدرة على معالجة المعادلات الرياضية، بيد أنه يمكن القول بأنه مؤسس على فهم عام للمبادئ الأولية الأساسية التي يعمل على أساسها العالم. معنى هذا أن المثقفين علميًّا، أي من توافرت لديهم المعارف الأولية العلمية سوف يعرفون أن الطاقة لا تفنى ولا تستحدث، ولكن تتحول من صورة إلى أخرى. من أشعة شمسية إلى تيار كهربي مثلاً. بيد أنهم لم يكونوا بالضرورة قادرين على تحليل ملاءمة مزيج خاص من أشباه الموصلات لبناء خلية فولطائية ضوئية Photovoltaic Cell، أي خلية قادرة على إنتاج جهد كهربي عند تعرضها

لطاقة مشعة. وليس ضروريًّا أيضًا أن يكونوا قادرين على حساب عدد الخلايا اللازمة لتحل محل محطة توليد تقليدية.

علاوة على هذا فإنه مع اطراد تعقد العلم ذاته، ومع ازدياد تشابك وتداخل الدراسات التي يعرضها تصبح مناهج تعليم العلم التقليدية غير ملائمة أكثر فأكثر. وليس ثمة جديد فيما يتعلق بالقاعدة المعيارية (وضع الفرض واختباره، ثم الاستنتاج) الخاصة بتعليم المنهج العلمي، التي من شأنها أن تعد الطالب من بعد للتعامل مع أحدث تقرير صادر عن الفريق الحكومي الدولي المعني بتغير المناخ. ومن ثم فإن مفهوم المعارف الأولية لا يمثل فقط أسلوبًا جديدًا في تناول موضوع تعليم العلم للجمهور العام، بل الأسلوب الوحيد الذي يمكن به إعداد الطلاب للعالم الذي سيجدون فيه أنفسهم.

سبل محو الأمية العلمية

إن محو الأمية العلمية لبنة واحدة في بنية أكبر نسميها محو الأمية الثقافية، أو الإحاطة بالمعارف الأساسية للثقافة، لكن هذه اللبنة لها قضاياها ومشكلاتها الخاصة بها. فمحو الأمية العلمية هو توافر المعارف التي يفترض أهل العلم في زمان ومكان محددين أنها متوفرة لدى غيرهم من الناس.

فنفترض أن صحف الغد يمكن أن تتضمن مقالاً عن مكسيكو سيتي، ولم يذكر الكاتب أن مكسيكو سيتي هي عاصمة المكسيك، وهي بلد تشترك

مع الولايات المتحدة الأمريكية في حدودها الجنوبية؛ وذلك لأن الكاتب يفترض أن القراء على علم مسبق بهذه المعارف، فإن الكاتب لم يجشم نفسه مهمة إخبار قرائه عن شيء منها، ويعني هذا بدوره أن القراء إذا كانوا على غير علم بهذه المعارف فذلك من سوء حظهم، ولا شيء آخر، ومن ثم لن يعرفوا شيئًا عن موضوع المقال.

وهنا نقول إن جميع المعارف صغيرها وكبيرها التي يفترض الناس أنها متوفرة لدينا هي ما نسميه المعارف الأساسية الثقافية، وكم هو مهم أن ندرك أن ما نتحدث عنه هنا ليس سوى حقيقة تجريبية معيشة خالصة. وسواء قبلنا هذه الافتراضات أم لم نقبلها، نقول إنها واقع معيش الآن، وأن من يفتقر إلى أهم لبنات هذه المنظومة من المعارف لن يستطيع فهم بعض عناصر المناقشة - ربما هي العناصر المهمة - التي تجري على نطاق المجتمع باتساعه.

إن المعارف الأولية الثقافية ليست مجرد مجموعة من الحقائق. إنها مزيج متنافر من الأشياء، حقائق وأفكار وارتباطات وصور. ووصل الأمر إلى تشبيهها بنوع من العناصر المركبة التي تؤلف معًا مجموعة المعارف؛ حيث تتوحد وتتكامل فيها أفكار ومفاهيم جديدة.

إن التفكير في المعارف الأولية الثقافية (والمعارف الفرعية للمعارف الأولية العلمية) باعتبارها شيئًا يشبه كود شفرة البناء للمنظومة التعليمية. فإذا

نظرت إلى كود البناء في مجتمع ما فستجد قوائم طويلة من القواعد والقوانين، فمثلاً إذا كنت تريد نافذة بحجم معين في جدار ما فإن العارضة الخشبية فوقها ستكون بالحجم نفسه. وإذا أردت مقبسًا للتيار الكهربائي في هذا الموضع تحديدًا، فإنه يتعين توصيل الأسلاك بطريقة معينة، وهكذا معنى هذا أن كود البناء يحدد المعيار الأدنى للمباني، ولا يمكن بناء أي شيء في المجتمع من دون هذا المعيار.

فليس لامرئ أن يكمل نظام التعليم من دون تحصيل عناصر المعارف التي تحددها المبادئ الأساسية الثقافية. لكن مثلما يستطيع الناس تشييد أبنية تتجاوز كود البناء المحلي، فإننا لا نرى سببًا يبرر توقف التعليم عند استيفاء عناصر المعارف الأساسية للثقافة، فتواصل مهارات المستوى الأعلى عملية التعليم. ووفق هذا المخطط تصبح المعارف الأساسية الثقافية القاعدةَ والأساسَ اللذين ينبني عليهما كل ما عدا ذلك من عملية التعليم عند الشخص.

وفي هذا الصدد يمكننا أن نوضح أهمية المعارف الأولية الثقافية من خلال منطلق "إي دون هيرش" في النص التالي: «عليك أولاً وضع الأشياء في أكوام. قد يكون لديك أكثر من واحد. ويتوقف الأمر هنا على العدد الذي يتعين عليك تجهيزه. ثم يجب عليك تهيئة المعدات، لا يكاد يتم كل ذلك حتى يكون كل شيء على ما يرام».

إن القراءة الأولى للنص السابق تؤدي بالفرد إلى الحيرة الذهنية، ترى أي شيء في هذا العالم يحدثنا عنه، فيبدو الأمر كله بلا معنى. ولكن إذا تم وضع عنوانٍ للنص السابق هو "إعداد الغسيل" فذلك الفهم المفاجئ الذي يواتي القارئ يؤكد على أهمية المعارف الثقافية الأساسية أكثر من أي حجة أخرى.

يوجد قدر كبير من البحوث في علم نفس التعليم تدعم فكرة أن الناس تتعلم على نحو أفضل عندما تكون بمقدورهم ملاءمة معلومات جديدة مع المعارف. وحقيقة الأمر أن هذه الميزة للعقل البشري هي التي سعى دون هيرش إلى أن يستعيدها إلى الذاكرة بينما كان مستغرقًا في سرد ذكرياته عن اكتشافه للمعارف الأولية الثقافية؛ إذ كان يبحث عن الدور الذي يمكن له أن يسميه "النحو الجيد" Good Grammar عندما أعطى مجموعات منتقاة من الطلاب نصوصًا مكتوبة بلغة إنجليزية جيدة. بيد أنه أصيب بالدهشة في كلية حكومية، حين وجد أن أحدًا من الطلاب لم يحقق إنجازًا جيدًا جدًّا مع النصوص بغض النظر عن مدى جودة اللغة الإنجليزية لأي منها. ولعلنا نقول تأسيسًا على المثال السابق، إنهم لا يعرفون شيئًا عن العناصر المهمة، مما جعل من العسير عليهم فهم الفقرة التي طلب منهم قراءتها.

حقًّا إن المعارف الأولية الثقافية تتضمن ما يتجاوز كثيرًا من الحقائق التي تشملها، فإنها تتضمن حقائق بطبيعة الحال، لكنها تشتمل أيضًا على مفاهيم وتعميمات ومبادئ أساسية وروابط وقوانين.

الطريق نحو الثقافة العلمية

إذا تمعن أي فرد في بناء ما، وتطلع إلى تفهم أعمال البناء لكي يتم تقييم أحد عناصر العملية، فكيف أصبح البناء في نهاية المطاف جميلاً يسر الناظرين ومعقد التركيب؟ إن كل مشروع يبدأ بوضع أساسيات متينة، قد تكون جدرانًا أسمنتية لطابق سفلي محفور تحت الأرض، أو دعامات من الحديد تغرس لتكون قاعدة، أو مجرد بلاطة خرسانية، ولكن كل شيء من هذا لابد أن يكون موجودًا أولاً لكي نمضي ونكمل العمل.

إن المعارف الأولية أو المعلومات الأساسية عن العلم، التي يحتاج إليها الناس لأداء دورهم كمواطنين، ولكي تتوافر لديهم القدرة على تقييم العالم من حولهم، لها في تعلم العلم الدور نفسه للأساسيات والدعامات الأسمنتية لبناء البيت، ولكي يعلو طبقات من حوله. ومن ثم يتعين أن تتوافر المعارف الأساسية عن العلم وتحتل مكانها الصحيح قبل أن يتحدث المرء عن مفاهيم أكثر تقدمًا، تمامًا مثلما يجب أن تكون أساسيات البناء في موضعها قبل أن نبني بقية البيت. فإن من يدفعون بأن علينا أن نعلم الطلاب المنهج العلمي أو أن نغرس لديهم عادة العقل العلمية إنما هم في الواقع يحاولون بناء البيت قبل إرساء الدعامات.

إن الناس عليهم أولاً، قبل الشروع في التفكير نقديًّا بشأن أي موضوع من موضوعات علم ما؛ أن يعرفوا شيئًا عن هذا العلم. فمثلاً لا معنى من

محاولة تعليم الطلاب التفكير النقدي في الاحترار الكوكبي إذا كانوا لا يعرفون أساسيات توازن الطاقة لكوكب الأرض. وفي النهاية لا يستطيع المرء أن يفكر نقديًّا في "لا شيء"؛ إذ إن المفاهيم التي نتناولها بالتفكير يجب أن تكون ضمن الترسانة الذهنية قبل الشروع في التفكير فيها.

فحينما نتطلع إلى النظرة العلمية إلى العالم، فإن الشيء المنطقي أن نسأل ما هذا الشيء؟ كيف يعمل؟ ما علاقته بما حوله. فمثلاً إن وميض البرق والقوة التي تسمح لمغناطيسات زخرفية بالاحتفاظ بأوراق الملاحظات على الثلاجة جميعًا مترابطة، وأن الاثنين مرتبطان بالكهرباء التي تسري داخل البيت والضوء الذي ينير المكان. وبعد ذلك ستصل إلى عدد من المبادئ الكونية، أو الأفكار الكبرى، فإنها اللب والهيكل العام لأسلوب العلماء في النظر إلى العالم. إنها هي التي تعطي نظرتنا إلى الكون شكلها وصورتها. إن هذه التراتبية الطبيعية الهرمية في تنظيم العلوم توحي لنا بنهج لتعليم العلم تأسيسًا على الأفكار الكبرى.

إن بالإمكان تصور الأفكار الكبرى في صورة هيكل عام فكري، إن هذا يعطي مرونة كبيرة في التفاصيل بشأن كيفية عرض الموضوعات التي هي خاصية مفيدة لأي مخطط تعليمي.

ثمة خاصية مهمة تشترك فيها الأفكار الكبرى مع آراء أخرى ترتبط بالمعارف الأولية الثقافية. لا أحد منا يعرف من الآن ماذا ستكون موضوعات

الحوار بعد عشرين عامًا، ونحن على يقين أن أحدًا لم يكن بوسعه منذ عشرين عامًا أن يتنبأ بالنقاشات الدائرة الآن عن الهندسة الوراثية أو عن الخلايا الجذعية، ولكن أيًّا كانت موضوعات الحوار التي تجري مستقبلاً نستطيع أن نضع لها إطارًا مرتبطًا بالإطار العام للأفكار الكبرى.

وها هو عدد من الأفكار الكبرى التي يمكن مناقشتها بالترتيب ضمانًا للفاعلية من وجهة نظر تربوية.

سطح الأرض في تغير دائم

جاء ميلاد نظرية التكتونية (صفائح أو ألواح عناصر القشرة الأرضية) وصورة عمل الأرض لدينا الآن في ستينيات القرن الماضي. وهذه النظرية من أفضل الأمثلة التي توضح لنا كيف أن المعلومات الجديدة قوة دافعة لتغير العلم؛ إذ إنه في خلال بضع سنوات تخلى كل المجتمع العلمي المعني بعلم الأرض عن الأفكار الثابتة القديمة والتنقل إلى الصورة الدينامية الجديدة عن كوكب الأرض. ونجد في هذه الصورة أن سطح الأرض مؤلف من بلاطات أو ألواح بسمك ما بين 30 و50 ميلاً، نسميها صفائح. وتتحرك هذه الصفائح في استجابة لسريان الحرارة (الغليان) في الباطن العميق. ونتيجة لذلك، فإن الصحيفة الممثلة لأمريكا الشمالية والممتدة من منتصف الأطلسي وحتى كاليفورنيا تتحرك مبتعدة عن أوروبا بمعدل عدة بوصات كل سنة. ولذلك فإن خصائص سطح الأرض في حالة تغير دائم، ولا يوجد شيء أبدي.

إن حقيقة أن الأرض في تغير مستمر يساعد كلاًّ منا في فهم أن الأرض في تغير مستمر وهو ما يمكن تسميته "زيف اللقطة أو الصورة الواحدة"، وتقضي هذه الفكرة بأن كل مظهر من مظاهر الأرض كان على حاله دائمًا منذ أن أدركه الإنسان الأول، وبأن أي تغير يمثل نوعًا من الكارثة.

الأفضل عدو الجيد

إن المثقفين علميًّا هم من توافرت لديهم المعارف الأولية العلمية. ويملك هؤلاء بذلك الإطار الفكري الذي يسمح لهم بفهم العلم الأساسي الذي يشكل قاعدة لأي قضايا مثارة. لكن ليس معنى هذا أن ستكون لديهم القدرة على التفكير في هذه القضايا بالأسلوب النقدي والكمي نفسه الذي يفكر به العالم. إن المهم حقيقة هو العلم في صورته الأكثر تقدمًا، وأن عرض أي شيء آخر مهما كان قدره أشبه بتقديمنا تعليمًا مخففًا أو مائعًا للطلاب.

إن الهدف من تحويل كل مواطن إلى نسخة مصغرة لعالم ليس أمرًا غير علمي تمامًا فقط، بل عديم الجدوى أيضًا ولا معنى له. فإن أحد الأسرار الصغيرة البغيضة في المجتمع العلمي أن العلماء المشتغلين بالبحث العلمي غالبًا ما يكونون هم أنفسهم أميين في مجالات علمية خارج تخصصهم المميز. لذلك فإن تدريب شخص على التفكير، كعالم فيزيائي مثلاً لايفيد كثيرًا حين يكون هذا الشخص مضطرًّا إلى معالجة قضية تتضمن البيولوجيا الجزئية. ونذكر هنا

أنه في حدود ما يلزم للمشاركة في الحياة العامة فإن اتساع نطاق المعرفة ينتصر على العمق وحده.

إن طبيعة العلم في تغير مستمر، وقضايا المستقبل سوف تشمل غالبًا أنواعًا من الممارسات الحاسوبية الكثيفة. وإن عددًا فقط من الإخصائيين هم من ستتوافر لديهم القدرة على الغوص في كل اتجاه داخل شفرات الحاسوب، وعلى تحديد أمور مثل الدقة والصواب. إن العلماء سيكون لهم دور مختلف جدًّا عن الدور الذي تصوره من يتوقعون من الناس أن يصوغوا آراءهم بشأن القضايا العلمية.

إن التعليم، شأنه شأن أي مجال آخر، يخضع للبدع والمستحدثات. بالإضافة إلى أن التعليم جيد ومثمر ويتجاوب مع اهتمامات الأفراد في أعمارهم.

واقع الثقافة العلمية في العالم العربي

إن غربة العلم في الوطن العربي وغربة المستقبل أو غيابه عن إرادتنا هو السبب الرئيسي الذي جعل غيرنا يسبقنا في عملية التطور؛ حيث إننا نعاني من أمراض مزمنة يمكن إجمالها في عدد من النقاط الرئيسية:

- غياب التمويل اللازم للبحث العلمي والتطوير، ويكفي الإشارة إلى أن ما يتم تخصيصه بالدول العربية لا يزيد عن 0,5% من إجمالي الناتج القومي، فضلاً عن أن طبيعة البحث العلمي الآن شديدة

التعقد، فضلاً عن أنه يمثل شراكة كوكبية تعبر عنها علاقات عضوية بين الأكاديميات والجامعات وبين العلماء كأفراد والمؤتمرات أو النشرات العلمية.

- ارتفاع نسبة الأمية الأبجدية في عديد من المجتمعات العربية وشيوع الأمية الثقافية العلمية والأمية الحاسوبية، وهي ما يعني غياب المواطن، القيمة والدور والفعل، وغياب الثقافة التي تؤهله ليكون فاعلاً ومشاركًا إيجابيًّا بفضل الثقافة العلمية، أي الفهم العلمي لقضايا الإنسان، والمجتمع، والطبيعة والكون من حولنا.

- غياب قيمة مغامرة المعرفة واكتشاف المجهول وحرية السؤال والبحث وحق الاختلاف، وأن التنوع إثراء للفكر وازدهار حضاري. وهي عملية يجري غرسها من خلال التنشئة الاجتماعية والتنشئة التعليمية في المدارس لتصنع مناخًا عامًّا.

- هجرة الباحثين العلميين إلى الخارج؛ حيث يجدون ذواتهم في الفرص المتاحة للتعبير عن قدراتهم واستثماراتهم بدلاً من حياة الغربة في الوطن.

- غياب سياسة علم وتعليم المجتمع، ومن خلال سياسات وطنية، أهلية الاندماج والتكامل مع الشبكة العالمية للإنجاز العلمي والتكنولوجي وامتلاك قدرة تحقيق المصير والأمن القومي وإرادة الفعل.

- غياب الحداثة كرؤية وهدف مرسوم، ومن ثم غياب آليات التحديث في كل أنشطة المجتمع، وغياب الإيمان بأن التحديث في صورته المتكاملة، هما السبيل لعلاج الأمراض العربية.

- دور محطات التلفاز العربية في تعليم المجتمع؛ إذ ترسخ تسطيح هذه المجتمعات عبر الإنفاق السخي على المنوعات والأفلام دون الإنتاج القائم على نشر المعرفة والعلم كالأفلام التسجيلية والبرامج العلمية، وهناك محاولات محدودة في هذا الإطار كحالة تعريب National Geographic T.V في أبو ظبي.

المجلات العلمية

قام الغرب بابتداع نظام يكفل توزيع الكتب والمجلات العلمية بسهولة ويسر عبر الاشتراكات التي تقدمها المكتبات العامة والجامعية في هذه المجلات، ككافل لسنوات صدور المجلات العلمية المتخصصة وفق شبكة توزيع تغطي تكلفة الصدور؛ لهذا انتشرت المجلات المتخصصة في مختلف المجالات، ونجح هذا النظام لمائة عام، وتدفقت أعدادها، لكن مع ظهور هذه المجلات بصورة رقمية ارتفعت قيمة اشتراكاتها تدريجيًّا، مما جعل المكتبات تشتريها بما يتجاوز 25% بل وأحيانًا 50% من ميزانيتها، وتعجز المكتبات في دول العالم النامي عن سداد هذه الاشتراكات، وهو ما يشكل إشكالية كبرى أمام تقدم العلم والمعرفة، فالمجلة

الطبية المصرية ومجلة مجمع اللغة العربية في مصر، لا توجد لهما شبكة توزيع على غرار مثيلتهما في أوروبا والولايات المتحدة، في الوقت الذي مازالت فيه الدوريات الرقمية العربية محدودة.

إن روح العصر هي المعرفة العلمية النسقية التي هي نمط خاص من علاقة الوجود الإنساني بالطبيعة وبالنفس وبالمجتمع. علاقة النظر والنظرية، صياغة قوانين وقواعد تكشف اطراد الظاهرة وتحولاتها، والإجابة عن السبب والكيف والقدرة على التنبؤ والإفادة العلمية بذلك في الحياة الاجتماعية، والتفكير العلمي المنهجي مدفوع بقوته الذاتية وبإنجازاته إلى المزيد، إنه نقيض ثقافة الاكتفاء الذاتي أو ثقافة الحقيقة المطلقة التي تقتل الفضول المعرفي وتعتمد التفكير الاختزالي برد الظواهر إلى علل خارجها، ومن ثم يستحيل على المرء والمجتمع التحكم في شئون حياته، وثقافة العلم هي ثقافة التغيير، تغيير العالم عن وعي وإرادة، وليس مجرد فهمه أو تأمله أو فك معضلاته أو التأمل في الظواهر الكونية، فثقافة العلم هي ثقافة الإيمان بقيمة الإنسانية، وبناء الإنسان، لذا هي ثقافة الديمقراطية.

والعلم يعد أداة تحقيق الذات عن وعي ثقافيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا، وأداة الدفاع عن النفس وكفالة الأمن والانتصار في صراع الوجود. وهو الأداة المناسبة للتعبير عن الهوية وتأكيد أصالتها بعيدًا عن تهويمات أيديولوجية؛ لأن الهوية في جوهرها فعل الذات الواعية.. فعل إنجاز "النحن" المجتمعية في الاستجابة

للتحديات بلغة وقدرات حضارة العصر، وبذا تدعم الانتماء وترسخ عوامل تلاحم بنية المجتمع.

الصناعات الإبداعية

صناعة الإبداع تعد من الأسس التي يجب أن يُبنى عليها مستقبل الثقافة في الوطن العربي، خاصة أن الوظيفة الاجتماعية للإبداع لا تتحقق، لأن الأفراد مبدعون لكن فقط حين يتوافر لمثل هؤلاء الأشخاص النمو، والمال والبنية التحتية والتنظيم، والأسواق، وحقوق الملكية، وعمليات واسعة النطاق يمكنها استيعاب ذلك الإبداع.

إن المؤكد أن الإبداع هو الذي سيقود التغيير الاجتماعي والاقتصادي خلال القرن الحالي، فقد أصبحت الصناعات الإبداعية عنصرًا مهمًّا في تكوين الاقتصاديات المتقدمة. ففي عام 2001، قُدِّر صافي عائدات صناعات حقوق النشر الأمريكية بـ 791,2 مليار دولار أمريكي، وهو ما يعادل 7,75% من إجمالي الناتج القومي، ويعمل بها حوالي 8 ملايين عامل.

وفي المملكة المتحدة، وفي العام نفسه قدرت عوائد الصناعات الإبداعية بـ 112,52 مليار جنيه إسترليني، ويعمل بها 1,3 مليون شخص، وتسهم بـ 10,3 مليارات جنيه إسترليني من الصادرات وتشكل 5% من الناتج القومي الإجمالي.

بالإضافة إلى ما سبق، تعود أهمية الصناعات الإبداعية إلى دورها المتوقع كموجة للمعرفة الاقتصادية ومدعم للصناعات والخدمات الأخرى – عبر تزويدها، على سبيل المثال بالمحتوى الرقمي الذي يترجم مباشرة إلى ميزة تنافسية وطاقة إبداع لقطاعات الاقتصاد الأخرى، وكذلك عبر احتضان رأس المال الإبداعي والمبدعين.

وسيؤدي الطريق إلى صناعة الإبداع إلى تحول أجواء العمل من أصحاب الياقات الزرقاء والبيضاء إلى المبدعين الذين يحددون ساعات عملهم ويرتدون الملابس البيضاء البسيطة ويعملون في أجواء مثيرة، لا يمكن إجبارهم على العمل، وإن كانوا لا ينقطعون عن العمل أبدًا، ومع ظهور الطبقة الإبداعية، فإن هذه الطريقة للعمل تنتقل من الهوامش إلى التيار الاقتصادي السائد.

تجمع صناعة الإبداع بين شقين أساسيين هما الفنون الإبداعية والصناعات الثقافية، ذلك أن الفنون والثقافة صارت في صلة مباشرة مع صناعات ضخمة مثل الترفيه الإعلامي، وهو ما يشير إلى تجاوز الهوة بين النخبة والجماهير عبر منتجات هذه الصناعة التي تغزو كل بيت الآن، سواء عبر الفضائيات أو شبكة الإنترنت.

إن خطورة عدم الانتباه إلى هذه التغييرات وعدم استيعابها في الوطن العربي، سيؤدي إلى انهيار المؤسسات الثقافية، فعلى سبيل المثال فرقة رضا

للفنون الشعبية، لا يجب أن تدار عبر الأداء الوظيفي التقليدي، كما يمكن وضع عروضها على إسطوانات DVD تباع للمهتمين، كما يمكن أن تسوق عبر المواقع الإلكترونية والمحطات التليفزيونية وعبر الإنترنت، وينتج من رقصاتها كروت تذكارية Postcards وكتب ونماذج تباع للأطفال والكبار.. إلخ.

تعبير الصناعات الإبداعية مستمد من المشهد المبني على عدم وضوح الحدود بين الفنون الإبداعية والصناعات الثقافية، وبين الحرية والرفاهية وبين العام والخاص، وبين التجاري والمملوك للدولة، وبين المواطن والمستهلك والسياسي والشخصي.

لكن تبقى حقيقة هامة هي أن الإبداع هو جوهر الثقافة لكن طريقة إنتاج الإبداع وتوزيعه واستهلاكه والاستمتاع به كانت في الماضي محدودة التأثير على الناتج القومي العربي؛ لكون العرب ينظرون للثقافة على أنها جزء مكمل لحياتهم وأداة ترفيه، بينما لو تم تعظيم العوائد الشخصية للمبدعين وتوسيع قاعدتهم، كذلك إقامة صناعات إبداعية على نتاجهم الإبداعي فسيعزز هذا مساحات الثقافة في المجتمع العربي، كما سيعزز دور العرب الثقافي دوليًّا.

وهناك عدد من الملاحظات الأساسية حول هذا الموضوع:

1 – الممارسات الإبداعية التفاعلية

تشكل التفاعلية بؤرة أساسية تؤدي إلى إقامة بيئات حية رقمية، للترفيه أو التعليم، وتظهر الصناعات الجديدة في منطقة التصميم التفاعلي عبر خلق تجارب للمستخدم تعزز وتنشر المحتوى الرقمي. ثم يتم نشرها بطريقة تلقائية بين الجمهور لهذا المحتوى، الذي يجري تطويره وتحديثه طبقًا لتفاعل الجمهور معه.

2 – الممارسات الإبداعية وأشكال جديدة للإنتاج الثقافي

تتيح التحولات التي جلبتها التقنيات الجديدة للمنتجين الإبداعيين فرصة نشر إنتاجهم بصورة غير مسبوقة، وفي مركز هذه التحولات نجد القدرة الحاسمة للإعلام الرقمي (الإذاعة، الهواتف النقالة، التليفزيون، البريد الإلكتروني، الألعاب، المواقع الإلكترونية)؛ من حيث قدرتها على استقبال ونقل المحتوى، فالهواتف النقالة من حيث قدرتها على قراءة وإرسال النص والصوت والصورة، تعد من أحدث منابر العمل الإبداعي، والحال كذلك بالنسبة إلى القدرات الإبداعية على شاشة الكمبيوتر بعد الشاشة الكبيرة «السينما» والشاشة الصغيرة «التليفزيون».

لكن نأخذ في الاعتبار ما يلي:

- يتجلى التعاون الإبداعي بصورة واضحة عندما يعمل أصحاب مهن وقدرات مختلفة معًا. وقد أدى هذا التعاون، المرة تلو الأخرى، إلى التوصل إلى حلول ناجحة للمشاكل، وطرق ثورية لرؤية ومعالجة صراعاتنا اليومية، في الفنون والعلوم على حد سواء.

- البيئات الإبداعية تتيح للناس الوقت للمحاولة، والفشل، والمحاولة مرة أخرى، والاكتشاف، واللعب، والاتصال وسط عناصر بادية التباين. هذا التجريب أو البحث قد لا يؤدي إلى إنتاج فني أو تطبيق علمي قبل عدة سنوات، تمامًا كما تخرج كل الأفكار والمنتجات الأصلية من فترة أولية على التجريب أو التسكع، ويبدو هذا أحيانًا بلا هدف، لكنه في جوهره عملية إبداعية.

- الإبداع صفة إنسانية أساسية يجب تنميتها في كل الناس، وليس في الفنانين والعلماء وحدهم. فحرية التعلم، والخلق، والمغامرة، والإخفاق والتساؤل، والنضال، والنمو، هي الأساس الأخلاقي الذي قامت عليه الولايات المتحدة. ونشر الإبداع بين كل الناس، من كل المواقع والفئات الاقتصادية والأصول العرقية، ضروري للمصلحة العامة.

حينما يصبح العالم الافتراضي هو الواقع الحقيقي

إلى وقت قريب كان تصفح العوالم الافتراضية لمجرد اللعب والتسلية، لكن المدهش هو أن هذه العوالم تسيطر يومًا بعد يوم على حياة الناس، بتحولها

إلى أداة أساسية في حياتهم؛ لينتقل الإنسان من الفعل في عالم الواقع إلى الفعل في العالم الافتراضي، لكن كيف يحدث ذلك؟

تخيل نفسك في بلد أجنبي، وبدلاً من تصفح دليل سفر أو خريطة، تضع نظارة أنيقة؛ لتتجول من خلالها في المدينة؛ حيث تتحول العدسات إلى شاشات شبه شفافة، تغذي عينيك عن المباني والشوارع المحيطة بك، وربما تعطيك اتجاهات الوصول إلى متجر عطور، أو أقرب مكان لشراء وجبة غداء سريعة.

يقول المتخصصون في العوالم الافتراضية التي سنسميها هنا الحياة الثانية، إنه تم ابتكار عالم النظارات الجديد لتعزيز التفاعل مع العالم الواقعي، فيمكن استخدامها لتحديد أماكن الأشياء وتقديم بيانات وإرشادات مفيدة حول ما يراه الإنسان من خلالها، وتستخدم تلك النظارات حاليًّا في زيادة بصغر الأشخاص الذي يعانون من مرض قصور الرؤية عن طريق تركيب رسم تخطيطي لتوسيع مجال الرؤية لما يراه المرء، هذا النوع من التكنولوجيا الرقمية يتطور سريعًا حاليًّا لتقديم فلتر رقمي للحياة الحقيقية عن طريق رسم كساء رقمي سحري للعالم الواقعي.

لذا فإن إنسان المستقبل سيسكن عالم الخيال، فيحصل على الحياة الثانية، التي يؤمن بها الآن عدد قليل من الناس، فهذه الحياة الثانية تسبب لهم حالة من الارتباك مع الواقع، يقول دانيال ترديمان مؤلف كتاب «الدليل إلى الحياة الثانية»:

إن 9 من 10 أشخاص لا يكملون تجربة العالم الافتراضي بعد الاشتراك بها لعدم قدرتهم على استيعاب الفكرة.

وإذا اعتقد البعض أن فكرة النظارات هي فكرة مستقبلية، فيمكن مراجعة النسخ المأخوذة عن العالم الحقيقي والموجودة على شبكة الإنترنت، ويعد عرض شوارع جوجل "Google Street View" أفضل أمثلتها، كما طورت جوجل أيضًا برنامجًا يتكون من ملايين الصور البانورامية التي أخذت في 9 مدن أمريكية، تتيح للفرد أن يسير داخل صورة شبه واقعية ثلاثية الأبعاد لكل مدينة، بدلاً من مجرد مشاهدتها مثلما يتم من خلال برنامج جوجل الأرضي Google Earth، كما قامت مايكروسوفت أيضًا بتحديث برنامج مشابه هو Virtual Earth 3D.

تستخدم هذه العوالم الافتراضية حاليًا في أغراض عادية مثل تحديد اتجاهات القيادة، ومتابعة أنشطة الجيران ومشاهدة بعض المعالم قبل زيارتها، تلك المدن الرقمية سيطرأ عليها تغيير في المستقبل بحيث تسمح لقرناء مماثلين لنا في التجول عبر هذا العالم الافتراضي، هذا ما يراه ستيفن شاو أحد مبرمجي Street View.

اليوم أيضًا من خلال الخرائط على الموبايل (المحمول) يمكنك تحميل الخرائط للاسترشاد بها، لكن مستقبلاً سوف تصبح هذه الخرائط ذات مستوى

خدمات أعلى؛ حيث ستقدم لك الطقس، وأحدث أخبار البلد الذي أنت فيه، كما سترشدك للطريق للوصول لمنزلك في ظل الضباب الكثيف.

يتخيل مايكل مارون أحد المبرمجين الإنجليز المهرة، المستقبل عبر مجسات ترصد كل شيء من مستويات التلوث إلى نسبة الازدحام في الشوارع عبر برنامج Geoxss، سيل من البيانات سيرسل إليك، وسيتمكن المشتركون في هذه الخدمة من ربط هذه المعلومات بالنظارات المبرمجة أو بعالم Google Street View للحصول على صور ومعلومات فورية في أي مكان بالعالم، هل سيساهم هذا في ربط العالم الافتراضي بالواقع بحيث يعيش الناس في عوالمهم الافتراضية، وهم يتعاملون مع العالم الواقعي؟ سؤال يطرحه المبرمجون الآن.

هناك تطورات ستلاقي اهتمام من يفضل العيش في العالم الافتراضي، فبعض الشركات ترفض إنشاء مكاتبها أو متاجرها في "الحياة الثانية"؛ لأنها تعتقد أنها غير آمنة، ليس لاحتمال انتحال صفتها، بل لأن تكنولوجيا الحياة الثانية لا تتميز بأمن كاف لتأمين المعاملات المالية أو استضافة اجتماعات العمل بمناقشاتها الحادة والخاصة أيضًا.

هذه المخاوف هي السبب وراء قيام شركة Multiverse بإنشاء برامج تتيح للأفراد والشركات والمؤسسات بناء عوالم افتراضية خاصة بهم، الأمر الذي لا يعني قدرة الأفراد على إضافة لمساتهم الخاصة على عوالمهم فقط، بل أيضًا بناء

مستويات مختلفة من الحماية حسب رغبتهم، فقد يختار أحد البنوك مثلاً أقصى درجات الأمن ليضمن للمشتركين أن الشخص الذي يساعدهم في الحصول على قرض على سبيل المثال ليس لصًّا.

تتيح الشركة للأفراد من خلال متصفح العوالم الافتراضية التنقل بين العوالم المختلفة، ويعني ذلك إمكانية دخول بنك افتراضي وإيداع شيك، ثم الانتقال لعالم آخر لمشاهدة الأفلام أو التسوق، وهناك حوالي 200 عالم افتراضي يتم بناؤه حاليًّا، تلك البرامج مجانية، ولكن الشركات التي تطلقها ستجني أرباحًا طائلة من خلال اتباع نموذج عمل موقع Ebay "إيباي" وهو الحصول على 10% من قيمة كل معاملة تجارية تتم من خلال شبكة عوالمها.

يعني التصور السابق وجود شركة تستضيف الأعمال والمبادلات التجارية وغيرها مما يجري في عالم المال والتسوق، أما بالنسبة للشركات التي تريد الخصوصية التامة مثل الذين يقومون بتطوير برامج جديدة، فيقومون ببناء عوالمهم الخاصة التي تتمتع بخصوصية تتطابق مع تلك الموجودة في المباني التي يعمل بها موظفوها.

انطلاقًا من هذا المبدأ تعمل نيكول فيتش في معامل Sun Microsystems على بناء المكتب الافتراضي Mpk، في هذا العالم يستطيع الأفراد الذين يعملون بعيدًا عن بعضهم البعض أن يقيموا الاجتماعات ويتناقشوا دون القلق مثلاً من

أن تسرق الشركة المنافسة أفكارهم. ويعمل حاليًّا ما يزيد عن نصف موظفي Sun Microsystems عن بعد؛ حيث يتمكنون من فتح شاشة في حائط قاعة الاجتماعات أو في المكتب ليعملوا سويًّا على إعداد تقرير أو تعديل مشروع.

هكذا لم تعد العوالم الافتراضية مجرد لعبة، فهل تسرقنا من العالم الواقعي لتصبح هي الواقع؟!

لكن كيف نذهب إلى المستقبل؟

الثقافة هي أسلوب حياة في المجتمع، تظهر في طريقة التفكير والسلوك الجماعي والفردي ونظرة الأفراد لأنفسهم وللآَخرين، وكيفية التعامل مع الممتلكات العامة والخاصة، والاستمتاع بالحياة، وطريقة الطهي والأزياء، وغير ذلك. ولم يعرف التاريخ الإنساني مجتمعًا تقدم دون أن يمتلك ثقافة متقدمة. وتظهر ثقافة المجتمع عند التجول في الميادين والشوارع لنرى كيف يتصرف أفراد هذا المجتمع، وكيف يتعامل بعضهم مع بعض، والأهم كيف ينظمون شئون حياتهم المشتركة على نحو يساعد على تطوير نوعية الحياة في المجتمع بأسرِه.

وبالإضافة إلى هذه المظاهر العامة، يُعد انتشار الثقافة العلمية أحد قواسم النهضة الثقافية في المجتمع؛ حيث تشمل الثقافة العلمية رؤية للعالم ونواميسه، منهجًا للفكر وأسلوبًا للحوار والقرار، يستند إلى المنطق والعقلانية ويحتكم إلى الحجة والبرهان، ويرفض الغيبيات ويترفع عن نقد العقائد، احترامًا لها وتأكيدًا

على أن لها مجالاً خاصًّا بها يختلف عن مجال العلم والمعرفة التي نقصد بها المعرفة الدنيوية المبنية على الملاحظة بالحواس والاستدلال بالقياس والاستنباط بالمنطق وإعمال العقل البشري.

لابد لواقعنا الثقافي العام من توطين الثقافة العلمية والنزوع المعرفي الأصيل الذي يتوافق مع الدعوة الحضارية التي عرفناها من العلماء العرب عبر العصور، ويتوافق في الوقت ذاته مع طبيعة العصر الذي نعيش فيه، ولا يمكن للمجتمع أن يتجه بقوة إلى العلم والمعرفة من دون الاهتمام بالمستقبل، ومن ثم الاهتمام بالشباب الذين يشكلون القوة المحركة للزمن القادم. إن الإمكانيات الهائلة المتوفرة في أجيال الشباب ينبغي تفعيلها بأقصى طاقاتها لضمان الدخول بالمجتمع المصري وبثقافته العامة في عصر الثورة العالمية المعرفية.

ولكن الثقافة العربية في أزمة يمكن أن نتلمسها في تجليات كثيرة؛ منها تردي السلوك على كافة المستويات، وغياب التفكير النقدي، وكثرة المساجلات دون أن يكون لها مردود في تقدم المجتمع، وشيوع العنف بكل تجلياته اللفظية والسلوكية على الصعيد المجتمعي، فضلاً عن ضيق الأفراد بالمختلفين عنهم ثقافيًّا ونوعيًّا وعلميًّا ودينيًّا.

إن أهمية التعليم لصناعة المستقبل أمر حتمي، ومن الصعب فصل التعليم عن الثقافة؛ لذا فإن إصلاح الثقافة المصرية يُعد ضرورة أساسية لانتظام الحياة

في المجتمع على أسس من العقلانية. والإصلاح الذي نأمله ونسعى إلى تحقيقه ليس مجرد زيادة في المنتجات الثقافية من أعمال إبداعية وفنية، رغم أهمية هذه الزيادة في الكم والكيف، ولكن ما نطمح إليه هو أن يزداد معدل المشاركة في النشاط الثقافي والإقبال على منتجاته على المستوى الشعبي؛ بحيث تتحول القيم الثقافية إلى أسلوب تفكير، ونمط حياة، ونظرة للمستقبل، ووجدان جديد يشكل وعي المواطن المصري.

ولا نبالغ إذا قلنا إن إصلاح الثقافة العربية هو المدخل الرئيسي لإعادة بناء الشخصية العربية المعاصرة، بحيث تكون أكثر انفتاحًا على التعددية، وقبولاً للرأي الآخر، تؤمن بالعقلانية والمنهج العلمي، وتمتلك قدرًا من الثقافة العلمية، وتكون شخصية مركبة من مخزون تاريخي ومعرفي هائل، ومُطَّلِعة على ما يحدث في العالم.

إن الإصلاح الثقافي الشامل هو المدخل الحقيقي لنهضة المجتمع العربي، وإعادة مكانة العرب بين الأمم. فالمكانة تُبنى على الاحترام والتقدير المتبادل، ولا تؤخذ بالقوة والغلبة، ولا تشترى بالمال، بل تكتسب بالعطاء الوفير، وتثبت بالبناء والاستمرار.

إن الأوضاع الراهنة للثقافة في الوطن العربي تحتاج منا إلى وقفة صريحة مع أنفسنا، وبصفة خاصة مراجعة أوضاع مؤسسات الثقافة والإعلام والبحث العلمي والتعليم والتعليم العالي وإصلاحها جميعًا، ولا يقدر الخيال والإبداع

ولا يسمح للصوت المخالف والرأي المغاير بأن يعبر عن نفسه. وبصفة خاصة، يجب إصلاح الجامعات بعد أن فقد الأستاذ الجامعي مكانته وأن نعيد للجامعة خصوصيتها واستقلالها.

لذا أقترح ما يلي:

- ضرورة التنبيه إلى صعود دور المجتمع المدني في الحياة الثقافية خلال السنوات القادمة، خاصة بعد ما أتاحته شبكة الإنترنت من مجالات جديدة أمام المثقفين للتغيير.

- ضرورة إعادة هيكلة المنظمة العربية للثقافة والفنون والعلوم (الإلكسو) لكي يكون إلى جانب مجلس الوزراء العرب (التعليم – الثقافة) الذي يقرر سياستها مجلس آخر للمثقفين والمؤسسات الثقافية المستقلة، فضلاً عن أهمية دعم ميزانيتها.

- تعزيز دور كتاب الجيب مثل سلسلة "عالم المعرفة" في الكويت، و"المكتبة الثقافية"، و"اقرأ"، و"كتاب الهلال"؛ لما لها من تأثير إيجابي في الثقافة العربية.

- إعادة النظر في منظومة الثقافة العربية الرقمية لكي تنتقل من العشوائية إلى الإبداع واكتشاف المبدعين وتعزيز الثقافة العربية.

- إن مستقبل الثقافة في الوطن العربي ينبئ عن ميلاد المثقف المستقل عن منظومة تقليدية قامت على احتضان الدولة للمثقفين بإدخالهم حظيرتها، يعود ذلك إلى أن شبكة الإنترنت خلقت فضاء أوسع للنشر غير مكلف ماديًّا، يتيح لهذا المثقف التعبير عما لديه. وسيشكل بعض المثقفين تيارات فكرية جديدة، وسيظل البعض يعمل بصورة منفردة.

- ظهور المثقفين بعيدًا عن العواصم، فمركزية ثقافة العاصمة كالقاهرة ودمشق وبيروت وغيرها، سينتهي عصرها، وسنشاهد محاولات لظهور أدباء أو مفكرين خارج نطاق هذه العواصم، وستكون شبكة الإنترنت هي محطة انطلاق هؤلاء.

- اختفاء أنصاف الحقائق من الحياة الثقافية العربية، فتنميط المجتمعات وقولبتها بات في حاجة إلى مراجعتها مرات ومرات، فالسياسات الثقافية لاشك أنها مهمة؛ إذ إن أية ثقافة يمكن أن تقع بسهولة فريسة السيطرة من الآخر، إذا لم يكن هناك رؤية لبناء ثقافة قوية عبر سياسات التعليم لترسيخ الذات الوطنية عبر اللغة الوطنية، وفي ونفس الوقت أعمال الفكر في التراث الوطني وطرح التساؤلات والنقاش حوله، إذا لم يكن هناك هذا، فلن يكون هناك ثقافة عربية، بل ستوجد ثقافة عربية مشوهة متأثرة بالفرانكفونية بصورة عميقة تكاد تذيب الثقافة العربية لتحولها لهامش، أو الأنجلوأمريكية لتحول الثقافة العربية لمجرد

هامش على الثقافة العامة السائدة في المجتمع؛ لذا سنرى الشاب يعرف الأدب الفرنسي أو الإنجليزي أو الأمريكي، ولكن لا يعرف شيئًا عن امرئ القيس أو حسان بن النعمان أو الزبيدي أو ابن خلدون أو غيرهم.

- افتقد الوطن العربي المدارس الفكرية ومراكز الأفكار والدراسات المستقبلية، لكن هذه النوعية من المدارس والمراكز ستشهد تحولاً جذريًّا خلال السنوات القادمة، فسيطرة العلم والثقافة والرؤى الاستراتيجية المخططة مستقبلاً، على صناع القرار في العالم، ستدفع صناع القرار في الوطن العربي إلى الإيمان بقوة المعرفة كسبيل للتواجد في عالم لا يعرف إلا المعرفة كأداة للحياة والبقاء.